أنا والباشـــا

أنـــا والبـاشـــــا

محمـد عـرمـوش

المكتبة العربية
للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: أنا والباشا
اسم الكاتب: محمد عرموش
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 11061
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85718 – 2 – 0

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إيش تاخد من تفليسي يا برديسي؟

- لقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم..

قال ذلك محمد علي باشا لمحمد بك لاظ، فقال محمد بك:

- كم أكره هذا الرجل وأتعجب من صبركم على ما يفعله يا أفندينا!
- لقد انتهى دوره، وحان وقت التخلص منه يا لاظ بك
- هل سنقتله يا أفندينا؟

فضحك الباشا قائلًا

- بالطبع لا يا لاظ..

كان محمد بك لاظ الذي كثيرًا ما ورد اسمه في تاريخ الجبرتي باسم كتخدا بك، والمشهور حإليا باسم لاظ أوغلي أو لاظوغلي، الساعد الأيمن لمحمد علي باشا وموضع ثقته والمتحدث باسمه، وكان لاظ شديد الإخلاص والولاء للباشا، وكان معجبًا به وبعبقريته أيما إعجاب، ولكنه لم يتمكن أبدًا من توقع الخطوة القادمة التي سيتخذها الباشا في عديدٍ من الأمور، ولكنه كان يستمتع بأداء الباشا منذ أن حضرا معًا إلى مصر ضمن قوات الجيش العثماني لطرد الحملة الفرنسية، وكان العثمانيون قد فشلوا في هزيمة الحملة الفرنسية وطردها من مصر، فاضطروا للتحالف مع الإنجليز، فتمكنوا

بمساعدتهم من هزيمة الجيش الفرنسي وأجبروه أن يغادر مصر. ومنذ ذلك الوقت، كانت أحوال مصر في غاية الاضطراب؛ فقد تصارعت عدة قوى على الحكم، والطريف أن محمد علي، شخصيًّا، كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها، أو على الأقل لمعظمها، فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة، وعدم استقرار الأمور لأيِّ فريق منهم في مصر، كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية، ويراهن عليها، فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات، وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري، وتسببت في إفاقته من سباته العميق وربما دون أن تقصد.

وُلِد محمد علي باشا بطل قصتنا سنة ١٧٦٩ م، ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا، وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة، منذ أن التحق بالجيش كان يميل إلى حل المواقف والمشكلات الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد على الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة، بغض النظر عن أيَّة اعتبارات أخرى، ومارس محمد علي فترة تجارة الدخان، مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية، وكان لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان بارعًا في قراءة وجوه الرجال. ثم ترك محمد علي تجارة الدخان، وعاد مرة أخرى إلى الحياة العسكرية، وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة

الفرنسية في مصر، طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلى هذا الجيش، فصدر الأمر إلى متصرف قولة بتقديم ما لديه من جنود، فألَّف كتيبة من ثلاثمائة جندي انضم محمد علي ومحمد لاظ في سلكها، ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلى أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م على متن السفن العثمانية، ومنذ ذلك التاريخ، شهد محمد علي كل الأحداث، وحتى جلاء الحملة الفرنسية، وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانات مصر جيدًا، وعلى حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم أنهم وضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها؛ فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكامًا يلهج بذكرهم التاريخ.

وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال الفترة التي أعقبت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني، وهؤلاء الجنود الألبان كان يُطلق عليهم الأرناؤوط أيضًا. ولقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة على مصر خلال هذه الفترة، واحدًا تلو الآخر، ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به، وكان أول والٍ بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا، ثم أحمد باشا، ثم علي باشا الجزائرلي، أما آخر والٍ فكان اسمه خورشيد باشا، وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على مصر.

وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه؛ فقد كان هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا، ثم على أحمد باشا، ثم على علي باشا الجزائرلي، ولكنه ظل بعيدًا عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي من زعماء المماليك، يأتمر على علي باشا الجزائرلي ويتولى أمر قتله، ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية في مصر، وبذلك تخلص محمد علي من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما، ولم يبقَ أمامه إلا قوة المماليك، فبدأ العمل على التخلص منها، وتمهيدًا لهذه الغاية، ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرًا؛ حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه، ويجعلهم هدفًا لسخط الشعب، وبالطبع كان يساعده في تنفيذ كل هذا محمد بك لاظ، البطل الثاني لقصتنا. وكان لاظ يتابع ما يفعله أستاذه كما لو كان يعزف سيمفونية رائعة، ويحرك جميع الناس من وراء الستار كما يحدث للدُمى في مسرح العرائس.

وفي ظل هذا الجو المأساوي، يدفع محمد علي بالبرديسي التعيس إلى الواجهة، ويكاد يصير حاكمًا على البلاد، ففي السابع من شهر ربيع الأول، أي الثاني والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٨٠٤ يدخل الشريكان العاصمة، فتستقبلهما الجموع الغاضبة التي تشتكي الفاقة والعوز، وأمام حالة اليأس الكبيرة هذه، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مخازن الغلال من توه، وتوزيع الحبوب المخزنة فيها، مَن مِن الرجلين سيستفيد من هذا القرار؟

البرديسي بحسب ما كتبه الجبرتي، لكن ما من شك أن محمد علي سيحظى بحصة هامة من رضى الشعب، ألم يكن هو من يوزع القمح في النهاية؟

لكن، ومهما يكن من أمر، فلحد الساعة لم تحل المشكلات بعد، فعلى البرديسي أن يستجيب لمطالب الجنود المتعددة والمتكررة بتأدية رواتبهم المتأخرة، وهكذا يجتمع مجلس لدى إبراهيم بك، يحضره محمد بك الألفي وغيره من الأمراء، ويتم اتخاذ قرار بتقسيم المبالغ المستحقة بين الأمراء بحسب مواردهم، ولكن هذا لم يكن كافيًا أيضًا، فيُرغم البرديسي على الرفع من الضريبة على تجار القاهرة، وأيضًا على تجار العاصمة من الأجانب؛ وبالتالي سيتسبب ذلك في غضب قناصل الدول، وهكذا فقد كان يتم الاستيلاء على بضائع التجار تحت أنظارهم الحزينة، وتباع بأبخس الأثمان، ولاستدراج دعم الجيش؛ يعمد البرديسي إلى إضافة ضريبة جديدة على المواطنين، وهي النقطة التي أفاضت الكأس، وتحولت القاهرة في الأيام التي أعقبت ذلك إلى بركان يغلي، فاندلعت المواجهات في كل مكان فيها تقريبًا، وارتفعت الأصوات المتوحدة من المآذن تعلن:

– (إيش تاخد من تفليسي يا برديسي، إيش تاخد من تفليسي يا برديسي)

وقام الرجال والنساء على سواء بطلاء أيديهم بطلاء أزرق علامة على الحداد، وأغلقت الدكاكين، وزاد نهب المرتزقة أكثر من أي وقت مضى، والاستيلاء على السفن القادمة من مصر العليا أو السفلى، ونهب ما تحمله من بضائع، وتوجهت الجموع إلى الأزهر، مكان تجمع الشعب في الأزمات العظمى، وتأهبت الأيادي للانقضاض، لكن لم يحدث أبدًا، وهو ما يثبت حسن تدبير محمد علي، وتحت تأثير موجة الغضب العارمة، لم يوجه أحد اللوم إلى الباشا القادم الذي كان يفرك يديه خلف الكواليس، فقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم، كما قال لمحمد بك لاظ.

المنقذ بلا طموح

وهكذا قام بتوزيع الجنود الألبان التابعين له في العاصمة، وكلفهم بمهمة منع المماليك من إيذاء الجماهير، وبدأ الشعب يهتم من قريب بهذا الحامي الذي أرسلته العناية الإلهية، ويستدعي البرديسي المستشيط غضبًا العلماء ووجهاء العاصمة، ويحملهم شاتمًا مسئولية ما يقع من أحداث، فيدافع محمد علي عن العلماء، ويعلن بحسم عن أن الحكومة هي من عليها تحمل أداء رواتب الجنود وليس الشعب المصري، وبهذا الموقف يبرهن للوجهاء أنه لا يخشى أن يعارض المماليك في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب، وبطريقة غير محسوسة لا يمنح للشعب صورة المنقذ فقط، بل والمنقذ بلا طموح.

وظل محمد بك لاظ ينظر إلى الباشا منتظرًا تعليماته، ويفكر فيما يجب فعله في هذا الظرف العصيب، فقد كان يساوره القلق بسبب ثورة الشعب، وغضب المماليك الذي امتد ليشمل جميع الجنود، فالوضع ملتهب، خاصة عندما عرف أن الجنود الألبان أنفسهم بدأوا السخط مطالبين بمستحقاتهم المالية هم أيضًا، فكيف سيتصرف الباشا؟ وتمنى لاظ لو أن بإمكانه اختراق عقل هذا الداهية الهادئ ليعرف فيمَ يفكر، ولكن هيهات.. ويفاجأ الباشا محمد بك لاظ قاطعًا حبل أفكاره قائلًا:

-أرسل جنودنا الأرناؤوط إلى عثمان بك البرديسي ليطالبوه برواتبهم..

اندهش لاظ بك وزادت حيرته، ولكنه سينفذ الأوامر على أيَّة حال دون تردد، فقد اعتاد تنفيذ أوامر الباشا دون أن يفهم مغزاها، فكم فعل ذلك كثيرًا ثم تبين له حسن تدبير الباشا! وبالفعل، اقتحم الجنود الألبان مكان اجتماع البرديسي وإبراهيم بك وباقي الأمراء بقوة؛ مطالبين بمستحقاتهم المالية، وأُسقِط في أيدي زعماء المماليك، ورأوا أنفسهم حيال قوتين؛ ثورة الأهالي من جهة، وجنود محمد علي من جهة أخرى، فلم يجدوا سبيلًا للنجاة سوى الفرار من القاهرة. وعاد لاظ بك للباشا ليخبره بما حدث وأنه لم يعد هناك ما يمنع من سيطرته على الحكم.

وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولى سلطة الحكم في مصر، فالمماليك قد دالت دولتهم، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد، والوالي التركي أحمد خورشيد باشا في القلعة سجين، وليس ثمة قوة حربية سوى الألبانيين "الأرناؤوط" الذين تحت قيادته، ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر، فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب، وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية، بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقًا به. وكان أحمد خورشيد باشا الوالي العثماني المتواجد بالقلعة هو الوالي الأخير الذي قام السلطان العثماني بتعيينه، وكان محمد علي يسعى للتخلص منه.

ولكن سيترك هذه المهمة لزعماء الشعب، وكان قد وصل خورشيد باشا إلى بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر منذ رحيل الحملة الفرنسية، فأولهم خسرو باشا وقد خُلِع، ثم طاهر باشا وقد قُتِل، ثم أحمد باشا وقد طُرِد، ثم علي باشا الجزائرلي وقد قُتِل، ثم خورشيد باشا..

ها هو الباشا عندكم

وكان خورشيد باشا سيء الرأي فاسد التدبير، ميالًا إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب، معتمدًا على القوة الغشوم، وتعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس، ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه.

ونعود إلى أبطال قصتنا، حيث يتحدثان معًا في بيت محمد علي باشا في الأزبكية، ويحاول محمد بك لاظ معرفة ما سيفعله الباشا مع الوالي العثماني، خاصة بعد عودة أمراء المماليك للسيطرة على معظم بلاد الوجه القبلي وبعض بلاد الوجه البحري، ودخولهم في حرب مع الوالي العثماني، شارك فيها محمد علي في صف الوالي بالطبع، وتردد لاظ بك قبل أن يسأل الباشا في حذر:

- ماذا عسانا أن نفعله حيال خورشيد باشا يا أفندينا؟

- لن نفعل شيئًا يا لاظ بك، بل إن أفعال عساكره هي التي ستقضي عليه..

- وكيف ذلك؟

- ألا تراهم يسيئون التعامل مع الناس، وينهبون ويقتلون ويخطفون حاجات الناس، ولا يستطيع السيطرة عليهم أو إيقافهم عند حدِّهم مما أثار غضب السيد عمر النقيب وباقي المشايخ..

- الأعجب من ذلك يا أفندينا، أن الدولة العثمانية تستمر في إمداد الوالي بالمزيد من العسكر العثماني على اختلاف أنواعهم، حيث وصل مؤخرًا العسكر الدلاة الذين زادوا الطين بلة، ولا أدري كيف تأتيهم الجرأة لارتكاب كل هذه الجرائم في حق الشعب، وهو لم يحدث من المماليك؟

- المماليك يا لاظ يعتبرون أنفسهم مصريون، وينتمون لهذا البلد، ويخجلون من مثل هذه الأفعال، أما العسكر العثماني فغرباء عن البلد وأهله يا لاظ..

- لقد فهمت الآن يا أفندينا سر تسمية المماليك بالمصرلية..

- آه لو يعلم السلطان ما يرتكبه عسكره في مصر من جرائم تستوجب العقاب!

- ولماذا يسكت الوالي ولا ينهاهم يا أفندينا؟

- إنه يعتمد عليهم في توطيد أركان حكمه، فهو يهادنهم ويدبر لهم رواتبهم، ويفرض الضرائب من أجلهم.

- ولكن ذلك أغضب الشعب ولجأ إلى مشايخه!

- وهذا بالتحديد ما سيؤدي للثورة التي ستطيح به يا لاظ؛ فلا تتعجل الأمور واصبر!

ولنترك الباشا وجليسه المخلص في الأزبكية، ونتجه إلى حارة الصناديقية بالأزهر، حيث الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ الكبير يتابع ويدون كل ما يحدث، ويروي لنا ما حدث بعد ذلك، **حيث كتب ما يلي**:

حضر سكان مصر القديمة نساء ورجالًا إلى جهة الجامع الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الدالاتية، ويخبرون أن الدالاتية قد أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهرًا، ولم يتركوهم يأخذون ثيابهم ومتاعهم، بل ومنعوا النساء أيضًا عندهم، وما خلص منهم إلا من تسلق وقفز من الجدران، وحضروا على هذه الصورة، فركب المشايخ إلى خورشيد باشا وخاطبوه في أمرهم، فكتب فرمانًا خطابًا للدالاتية بالخروج من الدور وتركها إلى أصحابها، فلم يمتثلوا، ولم يسمعوا ذلك، فخوطب الباشا ثانية، وأخبروه بعصيانهم، فقال إنهم مقيمون ثلاثة أيام، ثم يسافرون، وزاد الضجيج والجمع، فاجتمع المشايخ في صبحها يوم الخميس بالأزهر وتركوا قراءة الدروس، وخرجت سربة من الأولاد الصغار يصرخون بالأسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت، وحصل بالبلدة ضجة ووصل الخبر إلى الباشا بذلك، فأرسل كتخداه إلى الأزهر، فلم يجد أحدًا، وكان المشايخ انتقلوا بعد الظهر إلى بيتهم لأغراض نفسانية، وفشل مستمر فيهم، فلم ير أحدًا، فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوي وحضر هناك السيد عمر أفندي وخلافه فكلموه وأوهموه، ثم قام وانصرف.

وفي خروجه رجمه الأولاد بالحجارة وسبوه وشتموه وبقي الأمر على السكوت إلى يوم الجمعة، عاشره والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر وغالب الأسواق والدكاكين مغلقة واللغط والوسوسة دائران، وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة.

وفي ذلك اليوم نزل أحمد خورشيد باشا من القلعة ودخل بيت سعيد آغا، وذلك أنه ورد قاصدًا إسطمبول وعلى يده تقليد لمحمد علي بولاية جدة، فامتنع عن طلوع القلعة، فوقع الاتفاق على أن الباشا ينزل إلى بيت سعيد آغا ويخلع علي محمد علي هناك، فلما حضر الباشا هناك وحضر محمد علي وحسن باشا وأخوه عابدي بك وتقلد محمد علي باشا ولاية جدة ولبس فروة وقاووقًا وخرج يريد الركوب، فثارت عليه العسكر وطلبوا منه العلوفة، فقال لهم:

- ها هو الباشا عندكم..

وركب هو وذهب إلى داره بالأزبكية، وصار يفرق وينثر الذهب بطول الطريق، ثم إن العسكر ساروا إلى خورشيد باشا ومنعوه من الركوب، فلم يزل إلى بعد الغروب، فلاطفهم حسن باشا الذي كان يرافق الوالي ووعدهم، ثم ذهب مع حسن باشا إلى داره.

ومن رواية الجبرتي، يتضح مدى ضعف الباشا أمام العسكر الدلاة، كما أن الجبرتي ذكر محاولة الباب العالي في إبعاد محمد علي عن مصر ليصبح والي جدة، وقد أظهر محمد علي الطاعة لهذا الأمر، بل وبالغ في ذلك بنثر الذهب تعبيرًا عن سعادته بولاية جدة، ولكنه كان ينتظر شيئًا آخر، كان ينتظر الثورة التي كانت على وشك الاشتعال في أية لحظة..

يا رب يا متجلي اهلك العثمانلي

واجتمع العلماء ببيت القاضي وهم في حالة غضب شديد، وازدحم الناس حولهم، وتعالت الهتافات الغاضبة، ووصلت أصواتها إلى كل مكان في القاهرة وردد الناس:

- شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم..
- يا رب يا متجلي، اهلك العثمانلي
- حسبنا الله ونعم الوكيل
- يا لطيف.. يا لطيف
- يا رب يا متجلي اهلك العثمانلي

وغير ذلك من الهتافات الغاضبة، ويتفق العلماء على كتابة عرض حال وإرساله للوالي، فيأتيهم الجواب في اليوم التالي أنه سينفذ كل طلباتهم، ويطلب منهم الحضور إليه في القلعة للتشاور، فيشعرون أن هناك خدعة للتخلص منهم، فلا يستجيبون لدعوته. كانت كل هذه الأحداث المتصاعدة تؤكد أن تخطيط محمد علي يتم تنفيذه على أكمل وجه، وأصبح لا يخفي على محمد بك لاظ، فقد بدأ يجمع خيوط اللعبة التي يلعبها أستاذه، فهي تعتمد على دفع الجنود للمطالبة بالأموال، فيضطر الوالي إلى فرض ضرائب جديدة على الشعب، فيلجأ الشعب إلى المشايخ والعلماء، فيلجئون إلى محمد علي،

إنها متوالية تصاعدية، شاهدها من قبل تحدث مع الحكام السابقين ومع البرديسي التعيس، وها هو ينفذها مع أحمد خورشيد باشا بالأسلوب نفسه، وقد استطاع محمد علي أن يقدم نفسه على أنه الحل الوحيد المتاح لجميع المشكلات بالنسبة للشعب وللمشايخ وللعسكر، يا له من داهية طموح، له قدرة كبيرة على التحايل، إضافة إلى أن الرأي العام يقف إلى جواره، كما أنه يمتلك القوة المسلحة، فهذا الرجل الماهر عرف كيف يستميل إليه الشيوخ والشعب على حد سواء، وذلك بجعلهم يعتقدون أن سبب الأزمة الاقتصادية، وبالتالي الاضطرابات التي تهز القاهرة، ناجمة عن سوء الإدارة ويريد إشاعة الاستياء، ويفسح الطريق لوصوله إلى العرش دون أن يبدو أنه يسعى إليه، فهو يملك الآن تعاطف الشعب، وليس عليه إلا أن يظهر نواياه الخفية لتتحقق، ولكن ميكيافيلي يريد أن يُحمل إلى السلطة من طرف الشعب، محاولًا ليس فقط الحصول على دعم المشايخ والشعب، بل وأن يبدو كحاجة ضرورية ولا غنى عنها بالنسبة للباب العالي.

السيد عمر مكرم يطرق الباب

وفي اليوم التالي، توجه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، ومعهما مجموعة من المشايخ والعلماء إلى الأزبكية واجتمعوا مع محمد علي في داره، حيث كان ينتظر هذه اللحظة ويستعد لها، بل ويدفعهم إليها من خلف الستار، وبعد أن تبادلوا جميعًا التحية والسلام مع الباشا، بدأ السيد عمر الحديث قائلًا:

- إننا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولابد من عزله من الولاية..

فأظهر محمد علي تعجبه من هذا الكلام، وسأل سؤالًا يعرف إجابته جيدًا

- ومن تريدونه أن يكون واليًا؟

كان لاظ يتابع الحوار بإعجاب، ويتأمل سيده وهو يقرأ وجوه محدثيه، ويقود الحديث ويوجهه حيث يريد، وتحول إعجاب لاظ بما يفعله الباشا إلى نوع من المتعة، كما لو كان يشاهد عملًا فنيًّا رائعًا، أو مشهدًا تمثيليًّا بديع الإخراج، وجاهد لاظ نفسه ليتحكم في انفعالاته حتى لا تبدو على ملامحه مظاهر المتعة، وتابع الحديث في صمت، حيث أجاب السيد عمر على سؤال الباشا قائلًا:

- لا نرضى إلا بك، وتكون واليًا علينا بشروطنا..

وأضاف الشيخ الشرقاوي:

- ذلك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير

فأجاب محمد علي قائلًا:

- لا يمكنني قبول ذلك إلا بقرار من الباب العالي!

- سوف نعمل على تحقيق ذلك، ونرسل مطالبنا للسلطان إن شاء الله، ولكن المهم الآن أن تقبل وتنقذ البلاد مما هي فيه..

ويوافق محمد علي في النهاية، ويتعهد رسميًّا أن يحكم بالعدل، واحترام حقوق الشعب المصري، وألا يأخذ أي قرار دون العودة إلى العلماء، بل إنه يضيف أنه إذا ما أخلف شيئًا من وعوده، فإن لهؤلاء العلماء أنفسهم الحق في عزله.

تُرى هل سيأتي يوم ويعيد أحدهم التفكير في هذا المشهد، إنه لن يستطيع منع نفسه من الضحك في مرارة، فأيَّة سذاجة كانت لدى هؤلاء المشايخ والعلماء حتى يصدقوا هذا الداهية الذي يلعب بهم جميعًا، ولكن على أية حال، كان محمد علي هو البديل الوحيد المتوفر لديهم لإنقاذ الشعب مما هو فيه، أو هكذا كانوا يعتقدون. وقاموا بالفعل بإرسال رسالة إلى السلطان العثماني، يطلبون منه تعيين محمد علي واليًا على مصر.

الثورة على الوالي

لقد وصف الجبرتي رحمه الله لقاء المشايخ بمحمد علي في كتابه عجائب الآثار، حيث كتب ما يلي: فلما أصبحوا يوم الاثنين، اجتمعوا ببيت القاضي، وكذلك اجتمع كثيرٌ من العامة، فمنعوهم من الدخول إلى بيت القاضي، وقفلوا بابيه وحضر إليهم أيضًا سعيد آغا والجماعة، وركبوا جميعًا وذهبوا إلى محمد علي، وقالوا له إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولا بد من عزله من الولاية، فقال ومن تريدونه يكون واليًا، قالوا له لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا؛ لِما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولًا، ثم رضي وأحضروا له كركًا وعليه قفطان، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه إياه، وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة، وأرسلوا إلى أحمد خورشيد باشا الخبر بذلك، فقال:

- إني مولًى من طرف السلطان، فلا أُعزل بأمر الفلاحين!

ويتضح من رواية الجبرتي أن خورشيد باشا قد رفض مطالب الشعب، بل وتحدى إرادته؛ مما أثار غضب العلماء فقرروا خلعه بالقوة، واستعدوا لحصار القلعة تمهيدًا لاقتحامها، وهكذا اندلعت الثورة التي كان يخطط لها محمد علي باشا ويترقبها بشغف محمد بك لاظ، ويدوّن أحداثها الشيخ الجبرتي:

وأخذ الوالي يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة، ويستعد للقتال لإخضاع المدينة وإخماد الثورة، وأخذ زعماء الشعب يعدون الوسائل لإجبار خورشيد باشا على التسليم، فدعوا الأهالي إلى حمل السلاح، واحتشد الثائرون في ميدان الأزبكية حتى ملئوه، وعزم الزعماء أن يعيدوا إبلاغ الوالي قرارهم ويطلبوا منه احترامه منعا للفتنة وحقنا للدماء.

فبعثوا برسالة إلى عمر بك وصالح قوش وهم من رجال الوالي يذكرون فيها" ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا، وأنه لا ينبغي مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم، فأرسل عمر بك وزميله يطلبان سندا شرعيا ومثبتا لعزله، فاجتمع الزعماء في يوم الخميس ١٦ مايو ١٨٠٥ م ١٦ صفر ١٢٢٠ ه" بدار المحكمة" بيت القاضي، وحرروا محضرا في شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التي كانت تصدر بخلع السلاطين في الأستانة ووقعوا على المحضر، وقد جاء بالمحضر:

" إن للشعوب، طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، الحق في أن يقيموا الولاة، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم؛ لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة."

واستمر الوالي على عناده، فأخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على القتال، ولبى الأهالي الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت إليهم أيديهم من الأسلحة والعصي، وأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة

ووقفوا بها، وحمل السلاح كل قادر على حمله، وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح، واشتركت جميع طوائف الشعب على اختلاف أعمارهم ومراكزهم، وبلغ عدد الثوار ٤٠ ألفا حاملين الأسلحة والعصي، وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة. وأرسل خورشيد باشا صالح قوش إلى القاضي، فشق طريقه إليه بصعوبة وسط الحشود الغاضبة، محاولًا التخفي قدر الإمكان لتفادي بطش الثوار به والتقى به وخاطبه قائلًا:

– إن الباشا يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده، وبقاؤه في القلعة ليس فيه ضرر على الرعية.

فأجابه القاضي:

– قل للباشا: إن إقامتكم بالقلعة هي عين الضرر، فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة، طالبين نزولكم أو محاربتكم، فلا يمكننا منع قيام هذا الجمهور، وقل له أيضًا أن هذه آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام.

ويحاول خورشيد باشا مرة أخرى بعد فشل مهمة صالح قوش، ويرسل عمر بك أحد مستشاريه ليلتقي بقائد الثورة السيد عمر مكرم الذي أعطاه الأمان من الثوار ليتمكن من الحضور إليه، ويلتقي الرجلان ويدور بينهما الحوار التالي:

قال عمر بك:

- يقول خورشيد باشا:" كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم؛ وقد قال الله تعالى أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ؟

فأجابه عمر مكرم على الفور:

- أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شيء مألوف من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه..

- تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟

- قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة.

إذن فإن هذه الثورة لم تكن مهزومة أمام التفسير القائل بطاعة أولي الأمر، لقد كانت ثورة تملك روحا منتصرة، لأن عمر مكرم زعيم الثورة قد حسم المسألة بكلمات بسيطة حول أن أولي الأمر هم العلماء، وحملة الشريعة والسلطان العادل، وأن من حق الأمة أن تعزل الحكام الظالمين وليس الكافرين فقط، وأن ذلك الحق يطال الوالي والخليفة والسلطان.

ثم إن السيد عمر مكرم قد حسم قضية جواز قتال الحكام الظالمين، حين رد على عمر بك قائلا:

لقد أفتى العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة. وإذا كان هذا الوعي الفذ يعبر عن روح الثورة، فإنه أيضا يعبر عن روح العصر الذي سادت فيه هذه المفاهيم، وعن نوعية علماء الدين الذين كانوا يقودونه. لقد أيقن خورشيد باشا بعد عودة رسله برد زعماء الشعب، أن القضاء على هذه الثورة لن يكون سهلًا، وخاصة أنها بقيادة العلماء، ويقف خلفها محمد علي بكل ثقله، أو هكذا كان يعتقد الوالي المحاصر في القلعة. أما لاظ بك، فكان يدرك عبقرية سيده التي تتمثل في لعبه الدور المزدوج للمشارك في الأحداث والمتفرج عليها، فكمشارك وفاعل، كان يحرك ويتآمر ويغير من سيناريو الأحداث، وكمتفرج كان يترك المشاركين يمزقون بعضهم بعضًا، ليستفيد من ذلك في الوقت المناسب، وقد ترك محمد علي للسيد عمر مكرم حرية التصرف في حصار القلعة وتجويع سكانها، وإطلاق النار عليها من المدافع التي تيسرت للثوار، فكان زعيم الثورة بلا منازع، وعندما رفض الجنود الألبان الاشتراك في القتال إلا بعد حصولهم على النفقات، تم استعواضهم بواسطة الشعب نفسه، ويشتعل الموقف ويتأزم ومع مرور الوقت الذي طال دون حسم أحد طرفي الصراع للقتال، تصل الأخبار إلى الباب العالي بما يحدث في مصر، وتصله أيضًا رسالة زعماء الشعب، فيقوم السلطان بإرسال مبعوث خاص ليقف على ما يحدث عن قرب.

المتابعون في صمت

ووسط كل هذه الأحداث المثيرة والمتلاحقة، كان هناك بعض الفرنسيين المقيمين في مصر يتابعون ما يحدث في صمت، ويرسلون الرسائل إلى الحكومة الفرنسية عن طريق القنصل الفرنسي بالإسكندرية، ليطلعوها على كل ما يحدث في مصر، وينتظرون النصائح والتعليمات للتعامل على أساسها مع من يتصدر المشهد في مصر ويتولى الحكم فيها، وكان القنصل الفرنسي دروفيتي هو أهم المتابعين، وهو الذي كان يتولى كتابة الرسائل ويرسلها إلى فرنسا، وكان هناك من يستقبل رسائله في فرنسا، ويعيد له الردود المناسبة بعد مشاورة الإمبراطور الفرنسي، وكان يُدعى تاليران، وزير الخارجية في الحكومة الفرنسية، وكان الفرنسيون بالطبع يحاولون الاستفادة لأقصى درجة من الأوضاع حسب الأحوال، حتى يفوتوا الفرصة على الإنجليز الذين أعدوا محمد بك الألفي، ليكون رجلهم في مصر منذ أن سافر معهم إلى بريطانيا، بعد جلاء الحملة الفرنسية، ومكث ما يقرب من عام كامل في لندن، يتلقى التعليمات والتوجيهات، ليتم بعد ذلك إعادته إلى مصر.

وكان الألفي من أقوى الشخصيات المتواجدة في مصر من أمراء المماليك، حتى إن محمد علي كان يتجنب الدخول معه في مواجهات عسكرية، وقد اعترف من قبل محمد علي لجليسه ومحل ثقته محمد بك لاظ، أنه لا يخشى في مصر كلها سوى شخصين فقط الألفي وعمر مكرم، فهو يعمل لهما ألف حساب، وكان دروفيتي يعرف قدر الألفي جيدًا ومدى خطورته، فكانت رسائله إلى تاليران لا تخلو من موقف الألفي من الأحداث وأين تتواجد قواته على الأرض.

وظل دروفيتي يرسل عديدا من الرسائل إلى الحكومة الفرنسية، ويلح في طلب التعليمات المطلوب تنفيذها في حال وصول محمد علي للعرش، ولكن الردود كانت تأتيه على نحو لا يحسم الموقف، ويطلبون منه ألا يخسر أحد الأطراف المتصارعة، وأن يتصرف بحذر وأن يكون على مسافة واحدة منهم جميعًا، لحين استقرار الأمور، فهذا ما يريده إمبراطور فرنسا الذي لا يريد أن يخسر الباب العالي.

القنصل الفرنسي ومخاوفه من (حصان طروادة الإنجليزي)

ولا يفكر برناردينو دروفيتي القنصل الفرنسي بالإسكندرية إلا في مصالح فرنسا بالطبع وسط كل هذه الأحداث، فيقلق من كل تقارب يتم بين الألفي (حصان طروادة الإنجليزي) ومحمد علي محبوب الجماهير، ويتساءل أيضًا عن موقف الباب العالي من التعيين المفاجئ لمحمد علي، فيكتب رسالة إلى تاجر فرنسي بالقاهرة على علاقة بمحمد علي وبعض بكوات المماليك، وهو من أهم مصادر الأخبار للقنصل، ويُدعى فيليكس مونجان، **ويقول القنصل لمونجان في رسالته**:

(هذا هو الوقت الذي يلزمكم التحلي فيه بالمهارة والحذر لتقفوا بين الطرفين دون أن تصدموا أيا منهما، ويُشاع هنا بالإسكندرية أن الألفي بك متفق مع محمد علي وأنه سيدخل القاهرة قريبًا، إن لم يكن قد دخلها فعلًا، ويتعين عليك مقابلة محمد علي وجره لشرح هذا الأمر، فإذا لاحظت أن محمد علي عازم على الرفع من قيمة الألفي، ابذل كل جهدك لجعله يتراجع عن هذا الأمر، أشعره أنه إذا رفع البكوات سيُذهِب حظوته لدى الباب العالي، في حين يمكن أن يحفظ علاقته معه بذكاء، مادام قد تسلم السلطة برضى الشعب، أفهمه أيضًا أن جيشًا فرنسيًا يمكنه أن يعود إلى مصر، وأن البك صديق الإنجليز ومن يحمونه لن يعرفوا أوقاتًا سعيدة، وأعلمه أن

صاحب الجلالة، إمبراطورنا، على علم بإخلاصه وتفانيه للأمة الفرنسية، وأنه من اللائق له أن يلتزم بكل التصريحات التي أدلى بها سلفًا أمام المفوض العام. لابد أنك أدركت أننا انتصرنا حين نهزم الألفي، وقد ينتصر الإنجليز الآن إذا ما قبل الألفي المشاركة في السلطة العليا، وسيكسبون في مصر نفوذًا سيضر بنا.)

وتوالت رسائل القنصل لرجاله المقربين في القاهرة من التجار الفرنسيين وغيرهم الذين على علاقة بمحمد علي ليحذرهم من وصول الألفي للسلطة، ويتمنى معرفة خطة محمد علي من خلالهم ليتصرف على أساسها. ويلتقي بالفعل مونجان بمحمد علي دون أن يشعر به أحد، ويتحدث معه عن كل مخاوف القنصل، ويحاول أن يصل لمعرفة ما يفكر فيه، ولكن هيهات لأحد أن يراوغ الباشا وأن يعرف ما في دخيلة نفسه.

ولقد حضر لاظ اللقاء بالطبع، واستمتع بأداء الباشا الذي تحدث إلى مونجان كثيرًا دون أن يقول شيئًا، إنه ذلك النوع من الحديث الذي يتقنه رجال الدبلوماسية المهرة الذين يتكلمون كلامًا كثيرًا دون أن يصل أي معنى مفهوم وواضح لمن يستمع إليهم.

يرسل مونجان رسالة إلى القنصل بنتيجة لقاءه بمحمد علي، ويرد القنصل، وهكذا دواليك، ويحافظ محمد علي على علاقته بجميع الأطراف دون أن يزعج الباب العالي، ويتابع ضغط السيد عمر مكرم على خورشيد باشا ويتحكم في مستوى الضغط، حتى لا يصل لمستوى يُغضب السلطان، فهو ينتظر في شغف رد السلطان على رسائل العلماء، ويعرف جيدًا أن السلطان يتابع ما يحدث، ويرسل من يأتي له بالأخبار.

الثوار في انتظار الفرج

كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب في تاريخ مصر الحديث، في فترة من الزمن لا تتجاوز تسع سنوات، فالثورة الأولى قاوم بها الشعب نابليون، ومعروفة بثورة القاهرة الأولى في عهد الحملة الفرنسية، والثورة الثانية قاوم بها كليبر، والثالثة قام بها في وجه المماليك بقيادة البرديسي، والرابعة في وجه الوالي العثماني خورشيد باشا، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب في تلك الحقبة من الزمن.

وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت في تلك الآونة إلى محمد علي، وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم، فما ذلك إلا لأن محمد علي قد دعا إلى مبادئ الحرية، وأعلن في كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه، ونادى أن علة المحن التي حلت بالبلاد راجعة إلى سوء سياسة الولاة، وعدم وجود أيَّة رقابة على الحكومة، واعتقدوا أنهم سيتمكنون من مراقبة ومراجعة محمد علي في أي قرار قد يتخذه ضد مصالح الشعب، ألم يخبرهم أن عدم وجود رقابة على الحكومة هو سبب كل الأزمات التي تمر بها البلاد؟ إذن فهو حاكم يتقبل الرقابة الشعبية أو هكذا يبدو.. وانتظر جميع الأطراف قرار السلطان وطال الانتظار.

وظلت الحرب بين الشعب والوالي سجالًا إلى أن جاء الفرج يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ الموافق ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ حيث جاء القاهرة من الأستانة رسول يحمل فرمانًا يتضمن الخطاب لمحمد علي باشا (والي جدة سابقًا)، بتثبيته واليًا على مصر، حيث رضي بذلك العلماء والرعية، وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر.

فتوقف الضرب من القلعة، وأوقف الثوار الضرب من الجبل، مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بتعليمات من السيد عمر مكرم، إلى أن أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الأثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ ونزل منها ثم رحل عن البلاد، فكان آخر والي عثماني حكم مصر بإرادة الأستانة وأوامرها، وبذلك توجت الثورة بفوز إرادة الشعب، واستقر الحكم لمن اختاره نواب الشعب وليًّا للأمر، ولله عاقبة الأمور.

ولقد كان لوصول محمد علي للحكم بهذا الأسلوب أثر على مكانته لدى الباب العالي، فلم يكن تعيينه برغبة السلطان وإرادته، فولَّد ذلك مشاعر سلبية تجاهه، ورضي بالأمر الواقع مع تحين الفرصة لعزله في الوقت المناسب، وقد تزامن تعيين محمد علي مع إرسال قوة بحرية عثمانية ضخمة بقيادة قبطان باشا لتراقب الأمور في مصر.

راحت السكرة وجاءت الفكرة

وهكذا تأكد محمد بك لاظ من حسن تدبير سيده محمد علي باشا، ولكنه فجأة شعر بالقلق على سيده؛ فهو من وجهة نظره لن يستطيع القيام بالدور المزدوج كمشارك في الأحداث ومتفرج عليها في الوقت نفسه، فقد أصبح الباشا واليًا على مصر، وورث عرشها رسميًّا، وورث معه عديدًا من المشكلات المرتبطة بالحكم، وبدأ لاظ يفكر في هذه المشكلات واحدة تلو الأخرى، ويزداد توتره كلما أمعن في التفكير؛ فهناك المماليك المسيطرون على الوجه القبلي، بل واقترب بعضهم من القاهرة كالألفي المدفوع من الإنحليز، وكذلك هناك الجنود الذين لن يتوقفوا عن المطالبة برواتبهم المتأخرة، وهناك زعماء الشعب الذين لن يكفوا عن المطالبة بتحقيق الوعود الكثيرة التي وعدهم بها الباشا، ولا ينسى لاظ أن فرمان التكليف الذي صاحبته أوامر بإرسال قوات للحجاز لإعادة سيطرة الدولة العثمانية عليها وإنهاء الاضطرابات، كما أن فرنسا وقنصلها يترقبون الموقف، ولا يعلم أحد نواياهم ونوايا الإنجليز، يا لها من مشكلات كثيرة ومعقدة، فهل سيستطيع سيده التصرف في كل هذا؟

وتوجه لاظ إلى الباشا ليهنئه بالمنصب الجديد، ولكن التهنئة لم تكن هي سبب اللقاء، بل إنه أراد أن يطمئن على الباشا بعد تحمله كل هذه الأعباء، وليحاول أن يقف على ما سيقوم به الباشا حيال كل ذلك، ففوجئ لاظ بالباشا فكان هادئًا مبتسما بشوشا، ولا تبدو عليه أية علامة من علامات القلق، وقال لاظ في نفسه: هذا الرجل سيصيبني بالجنون يومًا ما! إن لاظ المسكين يحاول أن يفهم ويتابع تصرفات الباشا دون جدوى، إنه يراه دائمًا يتحرك ويسير في اتجاه أهدافه في ثقة المشاهد، ولا يساوره أي شك في تحقيقها، وهي أهداف تبدو للاظ شبه مستحيلة، أما هذا العبقري فيراها محققة بالفعل، ويتجه إليها في ثبات وثقة.

ومن أعجب ما قاله الباشا له ذات مرة إنه يرى في مصر أساسًا لبناء صرح شامخ وبناء ضخم، وعندما استفسر منه عن طبيعة هذا الصرح قال: إنها الدولة العظمى التي يخطط لتأسيسها على أنقاض الدولة العثمانية والتي سترث حدودها المترامية في الشرق والغرب وفي البحار، والتي ستهابها أقوى دول العالم وتعمل لها ألف حساب، دولة تمتلك جيوشًا نظامية منضبطة مزودة بأحدث الأسلحة والمعدات المحلية الصنع، ويرتدي جنودها ملابس محلية الصنع، وتمتلك أسطولا قويا يجوب البحار ليفرض سيطرته بسفن مصنوعة في ترسانات الدولة التي يزدهر اقتصادها في جميع المجالات، ولا تحتاج ما يلزمها من طعام أو أي منتجات من الخارج، دولة

تنعم بالعلم وتوظفه في جميع المجالات، دولة لا تخضع لغيرها، وتمتلك قرارها وتحمي مقدساتها، وتفرض إرادتها ولا تستجدي حقوقها، وتحافظ على تراثها ومقدساتها، وتكون فاعلا لا مفعولا به، ولم يكن يعرف لاظ، بالطبع، أن سيده رجل دولة من الطراز الأول، وأنه سيحكم مصر لما يقرب من أربعة وأربعين سنة. ثم أفاق لاظ فجأة مما هو فيه، وقال للباشا بعد تهنئته بالولاية:

– ماذا سنفعل يا أفندينا بشأن المماليك ورواتب الجنود وغيرها من الأمور؟!

– لا تشغل بالك يا لاظ بك، إنها أمور بسيطة يمكن تداركها..

لقد شعر الباشا بقلق لاظ وقرأ انفعالاته وأراد أن يطمئنه فقال مبتسمًا:

– يجب أن ناديك من الآن بلقب كتخدا بك، نائبنا الهمام..

– أرجو أن أكون عند حسن ظنك يا أفندينا.

– أمازلت تريد معرفة ما يجب فعله حيال ما يقلقك من أمور لا تستحق القلق؟

– لا يا أفندينا؛ فأنا أثق في حكمتكم وسأنفذ تعليماتكم بإخلاص..

فضحك الباشا وقال:

– حسنًا كتخدا بك، هذا ما توقعناه منك.

هنا قرر الباشا أن يرسل إلى قولة من يستدعي ولديه إبراهيم وطوسون، ليس لقلة ثقته في لاظ، ولكن لحاجته في هذه المرحلة للمزيد من الرجال المخلصين حوله، وهل هناك من هم أخلص له من أولاده؟ فعلى الرغم من أنهم صغار في السن، ولم يتجاوز أكبرهما سنًّا العشرين عامًا، إلا أنهما قد ورثا منه كثيرًا من الصفات كالإقدام والشجاعة وعدم التردد، وأهم من كل هذا عدم التوتر والقلق الذي يصاحب لاظ دائمًا، وخاصة في الأوقات الحرجة..

يا أحمد بك، وقعت في الشرك:

دبّر المماليك الهجوم على القاهرة ليستولوا عنوة على زمام الحكم، وبادروا إلى إنفاذه في شهر أغسطس سنة ١٨٠٥، ولم يمض شهران على تولية محمد علي باشا، وربما كان قصدهم من هذا التعجيل أن يضربوا ضربتهم، قبل رحيل قبطان باشا عن مصر؛ ليشهد بعينه قوة المماليك وشدة بأسهم، فينحاز إلى جانبهم ويولي واحدًا من زعمائهم حكم مصر، وقد اختاروا لهجومهم يوم الاحتفال بوفاء النيل، إذ يكون الباشا والجمع الحاشد من الجنود والأهالي في مصر القديمة بعيدًا عن المدينة، لكن اعترض محمد بك الألفي على ما قرره باقي بكوات المماليك، وحذرهم من تنفيذ الهجوم، ورفض الاشتراك معهم بقواته، فهو أكثرهم دراية بما يمكن أن يفعله محمد علي من خدع، ولكنهم أصروا على تنفيذ الهجوم بعد التنسيق مع بعض العسكر داخل القاهرة.

ولكن الباشا دائمًا لديه مصادره للحصول على المعلومات والمؤامرات، أليس هو نفسه مُتآمر. إن هؤلاء المساكين لا يعرفون مع من يتعاملون! إن لاظ نفسه لا يعرف جميع مصادر معلومات الباشا الذي استطاع أن يخترق صفوفهم جميعا، فلديه من يخبره بما يتحدث به العلماء والمشايخ والتجار

والمماليك والجنود الأرناؤوط، بل ويعرف ما يحدث داخل القلعة التي لم يصعد إليها بعد، بل إن العسكر الذين نسقوا الهجوم مع المماليك كانوا ينفذون تعليمات الباشا ليستدرج المماليك إلى حتفهم. ويستدعي الباشا ساعده الأيمن ويطلب منه فتح السد ليلًا، ليتدفق الماء في الخليج على عادة كل سنة، ولكن هذه المرة قبل يوم الاحتفال، فيقول لاظ متعجبًا:

– أمرك يا أفندينا، سأذهب على الفور، ولكني لا أخفي على أفندينا كم كانت ستكون فرحتي غدا بأول احتفال بكسر السد في عهدكم المبارك يا عزيز مصر.

– أعرف يا لاظ بك، ولكن البكوات سيقتحمون القاهرة غدًا، وستتحول سعادتك إلى كآبة بلا شك إذا نجحوا في مخططهم في أثناء احتفالنا..

– فهمت يا أفندينا، وسوف أعد لهم ما يستحقونه من استقبال يليق بهم.

ولنترك أبطال قصتنا ونتوجه إلى حارة الصناديقية بالأزهر، لنطَّلع على ما كتبه الجبرتي بأسلوبه الماتع عن هجوم المماليك في ذلك اليوم على القاهرة، **حيث كتب ما يلي**:

وأشيع في ذلك اليوم وصول فرقة من الأمراء المصريين من خلف الجبل، وبات الناس مستعدين للفرجة على موسم الخليج على العادة، فأمر

الباشا بإخراج الخيام والنظام إلى ناحية الجسر وعمل الحراقة، ثم أمر بكسر السد ليلًا فما طلع النهار إلا والماء يجري في الخليج، ولم يذهب الباشا ولا القاضي ولا أحد من الناس، ولم يشعروا بذلك، وكان قد بلغه ورود الأمراء المماليك، فتأخر عن الخروج وهم ظنوا خروجه مع العسكر إلى خارج المدينة، وفي وقت الشروق من ذلك اليوم، وصل طائفة من الأمراء إلى ناحية المذبح وكسروا بوابة الحسينية، ودخلوا من باب الفتوح في كبكبة عظيمة وخلفهم نقاقير كثيرة وجمال وأحمال، فشقوا من بين القصرين حتى وصلوا إلى الأشرفية، وشخص لهم الناس وضجوا بالسلام عليهم وبقولهم:

- نهار مبارك وسعيد
- حمدا لله على السلامة

وشخص الناس وبهتوا وخمنوا التخامين، فلما وصلوا عطفة الخراطين افترقوا فرقتين، فدخل عثمان بك وحسن وشاهين بك المرادي وأحمد كاشف سليم وعباس بك وغيرهم كشاف، وأجناد ومماليك وعبيد كثيرة نحو الألف، وخلف كل طائفة نقاقير وهجن، وبأيديهم البنادق والسيوف والأسلحة، ومروا بالجامع الأزهر وذهبوا إلى بيت السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي، فامتنع السيد عمر من مقابلتهم، فدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقاوي، وحضر عندهم السيد عمر، فقال لهم السيد عمر:

- ماذا تريدون؟ ولِمَ حضرتم في هذا التوقيت وهذا المكان؟

فقال شاهين بك:

- حضرنا نطلب منكم النجدة وقيام الرعية..

فقال السيد عمر:

- هذا لا يصح، ولم يكن بيننا وبينكم موعد ولا استعداد، والأولى ذهابكم وإلا أحاطت بنا وبكم العساكر وقتلونا معكم!

فعند ذلك ركبوا وخرجوا من باب البرقية، وبعد خروجهم حضر في أثرهم حسن بك الأرنؤدي، في عدة وافرة من العسكر وهم مشاة، وخرج خلفهم ليطاردهم طبقًا لما وصل له من تعليمات، فوجدهم خرجوا إلى الخلاء فرجع على أثره، وأما الفرقة الأخرى، فإنهم وصلوا إلى باب زويلة، وتقدموا قليلًا إلى جهة الدرب الأحمر فضرب عليهم العسكر الساكنون هناك بالرصاص فرجعوا القهقرى إلى داخل باب زويلة، وأرادوا الدخول إلى جامع المؤيد والكرنكة بتلك الناحية، فضرب عليهم المغاربة والمرابطون هناك، فأصيب منهم أشخاص وقوي جأش العسكر الذين في جهة الدرب الأحمر لما سمعوا ضرب الرصاص، وتنبه غيرهم واجتمعوا لمعاونتهم، وصُرِع منهم ثلاثة أشخاص وقعوا على الأرض، فلما عاينوا ذلك ولوا الأدبار، وتبعهم العسكر يضربون في أقفيتهم، فلم يزالوا في سيرهم إلى النحاسين، وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين، وكذلك بوابة الخراطين وبوابة البندقانيين، وذهبوا إلى جهة باب النصر لظنهم أنهم لا يمكنهم الخروج من

باب الفتوح الذي دخلوا منه، فلما وصلوا إلى باب النصر وجدوه مغلقًا، وامتنع المرابطون عن فتحه فعادوا على أثرهم وذهبوا إلى باب الفتوح، ثم رجعوا على أثرهم إلى جهة بين القصرين، فصادفوا أدبار الجماعة والعسكر في أقفيتهم بالرصاص، فاختبل القوم وسقط في أيديهم، وعلموا أنهم قد أحيط بهم، فترجلوا عن خيولهم ودخل منهم جماعة كثيرة جامع البرقوقية، وذهب منهم طائفة كبيرة بخيولهم نحو المائة إلى جهة باب النصر، فوجدوه مغلقًا فترجلوا أيضًا عن خيولهم ودخلوا العطوف، وتخطوا السور إلى الخلاء، وتفرق منهم جماعة اختفوا في الجهات، وبعض الوكائل والبيوت، ولما انحصر الذين دخلوا جامع البرقوقية وأغلقوا على أنفسهم الباب حاصرهم العسكر، وأحرقوا الباب وتسور أيضًا عليهم جماعة من العطفة التي بظاهر البرقوقية وقبضوا عليهم، وعروهم من ثيابهم وأخذوا ما معهم من الذهب والنقود والأسلحة المثمنة، وذبحوا منهم نحو الخمسين مثل الأغنام، وسحبوا نحو ذلك العدد بالحياة وهم عرايا مكشوفو الرءوس حفاة الأقدام موثوقو الأيدي، يضربونهم ويصفعونهم على أقفيتهم ووجوههم ويسبونهم ويشتمونهم ويسحبونهم على وجوههم حتى ذهبوا بهم وبرءوس القتلى إلى بيت الباشا بالأزبكية فامتلأ فرحًا.

وإذا تأملنا ما كتبه الجبرتي سندرك مدى براعة الخطة، وما تم إعداده لاستقبال هجوم المماليك على القاهرة، حيث سمحوا لهم بالدخول ثم أغلقوا جميع الأبواب فوقعوا في المصيدة، وهو ما ينم عن حسن تدبير محمد علي ورجاله، وسنشفق على هؤلاء المساكين الذين اعتقدوا أنهم يستطيعون مباغتته بهجوم محكم، فإذا بهم يساقون إليه في هذا الوضع المهين، ولما مثل بين يديه أحمد بك، تابع البرديسي ومن معه، قال لأحمد بك:

- يا أحمد بك وقعت في الشرك!

فطلب ماء، فحلوا وثاقه وأتوا بماء يشرب، فنظر لمن حوله، وخطف سيفًا من وسط بعض الواقفين، وهاج فيهم وأراد قتل محمد علي باشا، وقتل أنفارًا، فتكاثروا عليه وقتلوه، ووضعوا باقي الجماعة في جنازير، وفي أرجلهم القيود وربطوهم بالحوش، وهم على الحالة التي حضروا فيها من العري والحقارة والذلة.

وهكذا فشل هجوم المماليك على القاهرة فشلا ذريعًا، وأيقن لاظ أنه يعمل مع ثعلب ماكر، يصعب على المماليك أن يظفروا به، وعندما وصلت أخبار ما حدث للقنصل الفرنسي فيما بعد سعد كثيرًا، أما الإنجليز فأيقنوا أن التغلب على هذا الداهية لابد أن يحدث بالضغط على الباب العالي نفسه، فعملوا على تحقيق ذلك، أما قبطان باشا الرابض بقواته بالإسكندرية، فقد كان يترقب ما سيفعله المماليك مع محمد علي باشا، فلما وصلته هذه

المعلومات، تأكد أن المماليك ليسوا على المستوى المطلوب ليتمكنوا من تحقيق أهدافهم، وغادر الإسكندرية متوجهًا إلى الأستانة مصطحبًا معه خورشيد باشا، وقال قبطان باشا عند رحيله لمن حوله، ما يؤكد بعد نظره وفراسته وتحليله العميق لما يحدث:

- إني لأترك في مصر رجلًا ستجده الدولة يومًا من أعظم خصومها شأنًا وأكبرهم خطرًا، ولم يُوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا في دهائه وحزمه ومضاء عزيمته.

أما محمد علي باشا فقد انتهز فرصة هذه الهزيمة التي حلت بالمماليك، واستولى على الجيزة وكانت لم تزل إلى ذلك الحين في أيديهم.

ونعود إلى عقل لاظ بك المسكين الذي لا يتوقف عن التفكير، لمحاولة معرفة ولو بعض من أفكار سيده، حيث ينتبه فجأة ويسأل نفسه: هل من المعقول أن يكون الباشا هو الذي دبر هذا الهجوم، وشجع المماليك عليه بواسطة العسكر، ليقعوا في الفخ الذي نصبه لهم؟ ثم يردد بينه وبين نفسه بصوت مسموع:

- ربما، ربما..

لعن الله من يفعلها مرة أخرى

كان أكثر ما يُقلق لاظ في تلك الفترة، هو كيف سيستطيع سيده، عزيز مصر كما يحب أن يسميه، أن يوازن بين أعباء الحكم المعقدة، وبين الالتزام بوعوده لزعماء الشعب وأهمها العدل؟ هو كما ذكرنا من قبل لا يمكنه معرفة الخطوة القادمة التي سيُقدم عليها سيده، فلاظ بك لا يرى سوى جنود يحتاجون للمال، ومماليك متربصون، وزعماء للشعب يراقبون، وقناصل دول في خبث يتابعون، ولا يوجد والٍ كي يجبره محمد علي على فرض ضرائب جديدة كما كان يفعل كل مرة، فكيف ستكون قواعد اللعبة إذن؟ وهو لا يعرف أن الباشا سوف يضع هؤلاء الزعماء في صدارة المشهد، وسيقومون هم بالتفكير نيابة عنه في مهمات الأمور، ألم يأتوا به للحكم؟ فليقدموا الحلول إذن، وإلا سيرفض الاستمرار كما أكد من قبل لهم على رفضه لهذا المنصب. وبقليل من التأمل لسلوكيات وقرارات الباشا، أيقن لاظ أن سيده سيضع زعماء الشعب مكان الوالي أمام الشعب، فقد كان يعتمد عليهم في كل أمور الحكم، ويدفعهم لاتخاذ القرارات بدلًا عنه.

ففي أحد اجتماعاته بهم قال:

– إن العسكر الدلاة والأرناؤوط باقٍ لهم ثلاثة آلاف كيس، ولا نعرف لتحصيلها طريقة، فانظروا في ذلك وكيف يكون العمل؟ ولم يبق إلا هذه النوبة.

فقال الشيخ الشرقاوي:

– أما آن الوقت لرحيل هؤلاء العسكر عن البلاد، فقد كثرت مساوئهم وكثر اعتداؤهم على الناس!

– إذا أخذ العسكر رواتبهم سيسافرون إلى بلادهم، ولن يبقى منهم إلا من كنا في حاجة إليه، ومن يتولون المناصب من ضباطهم..

كان لاظ بك يتابع حديث الباشا مع الزعماء باهتمام ولا يشترك فيه كعادته، ولاحظ أن مبلغ عناية الباشا هو اكتساب رضاهم، وإقناعهم أنه في حاجة لفرض ضرائب جديدة، بعد إذنهم بالطبع، لدفع رواتب الجنود، وأن هذه آخر مرة يلجأ فيها لزيادة الضرائب، وكما توقع لاظ، اقتنع العلماء بكلام سيده، واستقر الرأي بعد المشاورة على أن يستولي محمد علي، في ذلك العام، على ثلث الفائض من الحصص والالتزام، أي على ثلث إيراد الملتزمين الذين يجمعون الإيراد من كافة الفلاحين بجميع البلاد، لأن ما يسمونه

الفائض هو صافي دخلهم، وكان الملتزمون يؤلفون إلى ذلك العهد طبقة كبيرة من الملاك، ولكن السيد عمر مكرم اعترض في نهاية المناقشة وقال:

- إن هذا أشبه بالمصادرة، وسيتبرمون من هذه الإتاوة بالتأكيد!
- سيتم ذلك هذا العام فقط، ولن يتكرر كل عام.
- وما الذي يضمن ذلك؟
- سنُثبت في الفرمان أن هذا الأمر لن يتكرر مرة أخرى
- ويجب أن نضيف (لعن الله من يفعلها مرة أخرى)

وانتهى الاجتماع باقتناع المشايخ زعماء الشعب بفرض ضريبة جديدة، وانفرجت الأزمة وأخذ لاظ بك يتأمل ملامح وجه محمد علي باشا وهو يفكر بعمق، وتمنى لو عرف فيمَ يفكر الباشا في هذه اللحظة، وفي الواقع كان الباشا يفكر في أنه سيلغي تماما يومًا ما نظام الالتزام المعمول به من العصر العثماني، وسيصبح هو وحده المالك الوحيد لجميع الأراضي الزراعية في مصر، ولكن أهم ما لاحظه لاظ بك في هذا اللقاء، هو مكانة السيد عمر مكرم ومدى قوة شخصيته، فقد عظم نفوذه في تلك الفترة إلى ما لم يسبق له نظير من قبل، وكان هذا وضعًا طبيعيًّا؛ فهو الذي أجلس محمد علي على عرش مصر، وكان في السنوات الأولى من حكمه أحد أركان ذلك العرش.

ولقد بلغ من مكانته أن محمد علي باشا لما اعتزم أن يجرد جيشًا لمحاربة محمد بك الألفي في الصعيد (أبريل سنة ١٨٠٦)، عرض عليه أن يستخلفه، فينوب عنه ويكون قائِمقامًا مدة غيبته، مما أدهش لاظ، أما ما زاد من دهشته أكثر، فهو امتناع السيد عمر مكرم وعدم قبوله طلب محمد علي، وقد سجل الجبرتي هذا الموقف للسيد عمر مكرم في كتابه، وذكر أن السيد عمر قال للمقربين منه:

- إنما هي إيهامات لا أصل لها..

ويبدو أن الامتناع كان راجعًا إلى أنه شعر أن العرض لم يكن إلا ضربًا من ضروب المجاملة والتكريم، أو لأنه كان يتورّع عن مناصب السلطة، ويخشى أن يتهمه حُسّاده –وكانوا كثيرين– أنه يسعى إلى الجاه، ولا يعطي إلا ليأخذ، فأراد أن يجعل جهاده في سبيل الله. والحقيقة أن الذي لا يعرفه لاظ بك، هو أن السيد عمر لم يكن في حاجة إلى أن يكون قائمقاماً ليعظم مركزه، فقد كان له في نفوس الشعب أكبر منزلة وأعظم مكانة، فكان لاظ بك يتعجب عندما يراه في الاجتماعات والحفلات العامة، يتقدم المدعوين فيخلون له صدر المجالس طواعية واختيارًا، فيكون بجانب محمد علي كتفًا لكتفٍ، وحسبك أن تقرأ بعض ما ذكره الجبرتي عنه في مناسبات مختلفة؛ لتعرف إلى أي حد بلغ نفوذه ومكانته.

قال الجبرتي: "ارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهي، والمرجع في الأمور الكلية والجزئية."، وقال في موضع آخر: "ولما وقع ما وقع في ولاية محمد علي باشا، وانفرد السيد عمر أفندي في الرياسة، صارت بيده مقاليد الأمور.". ولا نزاع أن الزعامة الشعبية قد اكتسبت نفوذًا معنويًّا كبيرًا لمكانة السيد عمر مكرم وشخصيته ومهابته، فهو بحكم رآسته لهذه الزعامة، كان يُسبغ عليها من شخصيته الكبيرة، ما يجعلها نافذة الكلمة محترمة المقام.

المماليك، صداع في رأس الباشا

وفي أوائل سنة ١٨٠٦ يستدعي محمد علي باشا اثنين من كبار القادة الألبان المقربين منه، وهما حسن باشا وأخيه عابدين بك، ويحيط محمد علي هذا الاجتماع بسرية تامة، فلا يحضر سوى القائدين وولديه إبراهيم وطوسون، وبالطبع كاتم أسراره الأمين محمد بك لاظ الذي كعادته يتابع الحديث باهتمام بالغ، ويبدأ محمد علي الحديث قائلًا:

– لقد حان الوقت كي تتوجها إلى الصعيد لسحق المماليك، ويجب أن تعلموا مواقع توزيع قواتهم هناك، وهو ما سأخبركم به الآن.

ويندهش لاظ كعادته من كلام الباشا، فقد كان يتوقع أن يطلب من القائدين إرسال عناصر استطلاع للتعرف على توزيع قوات بكوات المماليك في الصعيد، فإذا به يقول إنه سيخبرهم بهذه المعلومات بنفسه، فقال حسن باشا:

– نحن على أتم الاستعداد للقتال، وننتظر أوامركم..

فقال محمد علي باشا:

– اسمعاني جيدًا، يحتل الألفي وقواته الفيوم، وسليمان بك ومعه ثلاثة من أتباعه البكوات يرابطون بجنودهم شمالي أسيوط، وعثمان بك حسن

يرابط في إسنا، أما إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي وأتباعهما، فيحتلون شاطئ النيل بين أسيوط والمنيا.

- إذن سيكون الألفي أول من سنقاتله عند زحفنا بالجيش!

- نعم، واحذروا منه؛ فإنه ليس خصمًا هينًا، فهو دائم المراوغة والمناورة بقواته.

- لا تقلق يا أفندينا، سنقابله بما يستحقه..

كان الباشا يتمنى هزيمة الألفي بشكل خاص، ولكنه يعرف قدراته جيدًا. ويتم إعداد الجيش والتحرك بمجرد من الانتهاء من حشده، ويتابع محمد علي القتال بعد زحف الجيش لتنفيذ المهام المكلف بها، وتحدث أول مفاجأة لحسن باشا في أثناء انحداره بقواته إلى النيل جنوبًا، إذ لم يكد يجتاز الجيزة، حتى اصطدم بقوات الألفي الذي ترك الفيوم وجاء قاصدًا الوجه البحري، أما المفاجأة الثانية، فهو حجم القوات التي تحت قيادة الألفي، فهي أكبر بكثير مما يعرفه حسن باشا، أما الذي لا يعرفه حسن باشا، أن الألفي قد حشد تحت لوائه في الفيوم قبل مغادرتها عدة آلاف من البدو، ليناجز بهم قوات محمد علي، ووقعت المعركة بالفعل، وهزم الألفي حسن باشا هزيمة نكراء، مما اضطره للانسحاب بقواته وتحرك جنوبًا إلى أن وصل بني سويف ومكث بها خوفًا من الصدام مرة أخرى مع الألفي. وعندما وصلت هذه الأخبار لمحمد علي، انزعج كثيرًا وأخذ يفكر في كيفية القضاء

على عدوه اللدود محمد بك الألفي المدعوم من الإنجليز، والذي لديه قدرة عجيبة على حشد القوات، أما الألفي فقد تابع زحفه إلى الجيزة ومنها سار شمالًا إلى البحيرة. وعندما علم إبراهيم بك والبرديسي بهزيمة جيش محمد علي، تقدموا شمالًا وحاصروا المنيا، وكانت بها حامية من جنود محمد علي، وكان موقع المنيا عظيم الخطر، فأمدها حسن باشا بنجدة تحت قيادة أخيه عابدين بك، فجاءتها وشدت أزر الحامية، ووقفت الحرب عند هذا الحد، إذ واجه محمد علي مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه..

متمرد خطير

يحتاج الباشا معونة الزعامة الشعبية مرة أخرى، عندما يقرر السلطان خلعه من منصبه بضغط من الإنجليز، بعد انتصارهم على فرنسا في معركة الطرف الأغر البحرية الشهيرة، وسيطرتهم على البحر المتوسط، ويصبح وضع محمد علي أكثر حرجًا من أي وقت سابق، فقد قرر الباب العالي بالفعل أن يخلعه من منصبه؛ استجابة للضغوطات الإنجليزية، وكان القنصل الإنجليزي في الإسكندرية الميجور ميسيت يراسل الحكومة الإنجليزية للعمل على عزل محمد علي، وأقنعهم أن السلطان العثماني قام بتعيينه تحت ضغط الزعامة الشعبية، فقامت الحكومة الإنجليزية بمراسلة السفير الإنجليزي في الأستانة، لإقناع السلطان العثماني أن محمد علي لم يكن إلا دُمية بين أيدي الفرنسيين، وأنه متمرد خطير يمكنه أن يضع الدولة العثمانية في خطر؛ فمن الأفضل للسلطان أن يُعيد الوضع كما كان قبل ذلك، بحيث يعين واليا عثمانيا يتواجد بالقلعة بلا صلاحيات تقريبًا، وأن يحكم مصر أمراء المماليك، ولكن هذه المرة بقيادة رجل قوي وهو الألفي صنيعتهم. وأضاف السفير للسلطان بعد هذه النصائح تهديدًا خفيا **حيث قال:**

– أما يا صاحب العظمة، إذا استمر هذا الوضع لفترة أطول، فستضطر الحكومة الإنجليزية لاتخاذ التدابير اللازمة لضمان أمن إنجلترا.

وكان الباشا يعرف تمام المعرفة أن الإنجليز يحاولون خلعه من منصبه بواسطة الضغط على السلطان، ولكنه كان مازال يراهن على زعماء الشعب في تدعيم مركزه، وخاصة السيد عمر مكرم، وتُؤتِ الضغوط الإنجليزية على بلاط السلطان أُكُلها، ففي صباح أحد أيام شهر يوليو سنة ١٨٠٦ يحل بشواطئ مصر صالح باشا، قبودان العمارة العثمانية، وبرفقته ثلاثة آلاف مقاتل، ومعه فرمانات تقضي أن يتبادل شخص يُدعى موسى باشا منصبه كحاكم لسالونيك مع محمد علي، وكان الألفي على علم بذلك، لأنه يراسل القنصل الإنجليزي في مصر، ويعرف منه تطورات الموقف الدولي، ولذلك زحف بجيشه في اتجاه الوجه البحري لملاقاة صالح باشا الذي ابتهج لوصوله إلى مصر ومعه موسي باشا.

ولنذهب إلى الجبرتي لنطلع على كتبه عن هذا الموضوع، فقد كتب ما يلي:

"وردت سعاة من الإسكندرية، وأخبروا بورود أربعة مراكب وفيها عساكر، وصحبتهم رسل وبعض أشخاص من الإنكليز، ومعهم مكاتبة خطابٍ إلى الألفي وبشارة بالرضا والعفو للأمراء المصريين المماليك من الدولة العثمانية بشفاعة الإنكليز، فلما وصلوا إليه بناحية حوش بن عيسى

بالبحيرة سر بقدومهم، وعمل لهم شنكًا، وضرب لهم مدافع كثيرة، وأرسلهم إلى الأمراء القبليين –المماليك بالصعيد– وبصحبتهم أحد صناجقه، ثم إنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر إلى المشايخ وغيرهم وكذلك إلى مشايخ العربان."

ويرسل صالح باشا رسولًا إلى محمد علي، ويلتقي به في بيته بالأزبكية، ويخبره أن السلطان قد عينه واليًا على سلانيك فيقول له محمد علي:

– سمعًا وطاعة لأوامر مولانا السلطان، ولكنني أريد فرصة لدفع المتبقي من رواتب الجند، وقدرها عشرون ألف كيس، وبمجرد الانتهاء من ذلك، سأتوجه فورًا إلى سلانيك، ولكن من سيتولى حكم مصر؟

– موسى باشا والي سلانيك سوف يحكم مصر بدلًا عنكم، ومعه أمراء المماليك البكوات.

– وهل رضي السلطان عنهم؟

– نعم، ولكنه اشترط أن يضمنهم المشايخ والعلماء في مصر ويكفلونهم.

– على أية حال، بلِّغ تحياتنا لصالح باشا وموسى باشا، وأخبره بردنا على رسالته.

– حسنًا، سأخبر صالح باشا بردكم.

وهكذا حصل محمد علي باشا على وقت يتصرف خلاله بحكمة ودهاء، بعد أن أظهر امتثاله للأوامر، وأمر لاظ أن يهدي رسول القبودان هدايا قيمة، ويرسل معه إلى القبودان ومن معه كثيرًا من العطايا والهدايا، وهي ما يمكن أن نسميه رشاوي عينية باهظة. وبمجرد مغادرة رسول صالح باشا، يرسل محمد علي من يستدعي السيد عمر مكرم. وفي أثناء انتظار حضوره يقول للاظ بك:

- إني أعرف الترك، وأعرف الطريقة التي تنجح معهم، فالرشوة هي وسيلة فعالة مع هؤلاء الناس، وسوف أرسل منها كثيرا لرجال البلاط في الاستانة..

- فماذا عن الألفي يا أفندينا؟

- الألفي يا لاظ بك مكروه من بقية رؤساء المماليك..

- كالبرديسي وإبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهم يا أفندينا؟

- نعم يا لاظ، فهم ينقمون منه انفراده بالاتصال بالإنجليز، وكتمانه عنهم أسرار مفاوضاته معهم، وقد غادر الفيوم وتوجه لمقابلة صالح باشا دون أن يكاشف زملاءه بدخيلة نفسه، فغضبوا لذلك أشد الغضب.

- عفوًا، ولكن كيف عرفت ذلك يا أفندينا؟

- لقد وصل إليَّ من طرفهم سعاة يعرضون الصلح

- حقًّا يا أفندينا؟ ومتى كان ذلك؟ وكيف لم أعرف؟ وماذا كان ردكم عليهم يا عزيز مصر؟

فضحك الباشا وقال:

- كل هذه الأسئلة يا لاظ دفعة واحدة؟ سأجيبك عن سؤال واحد فقط، ولكن بإجابة غير كاملة، لقد تلقيت السعاة بالبشاشة والترحيب، وأرسلت معهم هدايا ورسائل للبكوات ستقلل من خطورة الألفي.

السيد عمر مكرم يُطمئن الباشا

ويحضر السيد عمر مكرم ويختلي به محمد علي، ليتفقا على ما يجب فعله، وبدأ محمد علي بسرد ما حدث للسيد عمر بالتفصيل، وأخبره بقرارات السلطان وطلب منه المعونة وقال:

– أنت تعلم يا سيد عمر أن هذه مؤامرة واسعة النطاق، اشترك في حياكة خيوطها الباب العالي والإنجليز ومحمد بك الألفي، ويبدو أن المؤامرة محكمة هذه المرة، ولا أدري كيف سأتصرف فيها، وقد أضطر إلى تنفيذ الفرمان وأتوجه إلى سلانيك!

– لا تقلق يا باشا، فهناك كثيرٌ مما يمكننا عمله، ففي قرارات السلطان نفسها ما يمكن استغلاله لحل هذه المشكلة.

– كيف يا سيد عمر؟

– لقد ذكرت لي يا باشا أن الأمراء المماليك قد عرضوا على السدة السلطانية تعهدهم بدفع الأموال الأميرية إلى خزانة الدولة العليا، وأداء مرتبات الحرمين الشريفين، والعفو عن جرائمهم الماضية، في مقابل إقرارهم على دخول مصر القاهرة، وأن طلبهم قد حاز القبول، وقبلت توبتهم على أن يقبل العلماء والوجاقلية والوجهاء والرؤساء بالديار المصرية كفالتهم، ونحن يا باشا كعلماء ومشايخ مصر لن نستطيع كفالتهم..

- فهل سترسلون هذا المعنى للسلطان ولصالح باشا؟

- سأجتمع اليوم إن شاء الله مع الشيخ الشرقاوي والشيخ السادات وباقي العلماء، ونكتب عريضة للسلطان ولصالح باشا بعد أن نتفق على صيغة مناسبة.

- ولكن يا سيد عمر إن الألفي في البحيرة ويحاصر دمنهور وقد يقتحمها!

- لا تقلق يا باشا، لقد أرسلت إلى نقيب الأشراف بدمنهور، وأكدت عليه بمقاومة قوات الألفي بكل ما يملك من قوة، وهو هناك ينظم المقاومة الشعبية ضده، ولكنني أطلب منك يا باشا أن تستعد لمقاومة قرار العزل ولو بالقوة، وسندعم موقفك عند السلطان إن شاء الله.

وانتهى اللقاء بين الباشا والسيد عمر مكرم الذي ترك الباشا ليجتمع بالعلماء ليدبروا الأمر. وبعد أن شرح السيد عمر ما حدث وتفاصيل اجتماعه مع الباشا وقرارات الباب العالي، اعترض العلماء على هذه القرارات، وقاموا بكتابة عريضة للسلطان ولصالح باشا يوضحون فيها اعتراضهم، وكان مضمون هذا الاعتراض: إن السلطان قَبِل توبة المماليك على أن يَقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية كفالتهم، على أن الموقعين على العريضة هم العلماء والوجهاء لا يستطيعون كفالتهم، فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول، ونحن لا قدرة لنا على ذلك

لما تقدم من أمثالهم، ولا يمكننا التكفل والتعهد، لأننا لا نطلع على ما في السرائر وما هو مستكن في الضمائر، فنرجو عدم المؤاخذة في الأمور التي لا قدرة لنا عليها، لأننا لا نقدر على دفع المعتدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم.

وختموا كلامهم بقولهم: إن الأمر للسُدة السلطانية. وكتبوا من العريضة نسختين، إحداهما إلى القبطان باشا، والأخرى إلى السلطان. وكان معنى هذا البيان أن العلماء متمسكون بمحمد علي واليًا، وفي الوقت نفسه حريصون على المحافظة على الخلافة العثمانية، على الرغم من كل ما شابها من ضعف وتحلل في ذلك الوقت، باعتبارها رمزًا لوحدة المسلمين. وعندما وصلت الرسالة إلى قبطان باشا، رفض ما جاء فيها وأرسل إلى السيد عمر مكرم والعلماء رسالة شديدة اللهجة، أصر فيها على رحيل محمد علي وحسن باشا وجميع العسكر الدلاة والأرناؤوط من مصر، ورفض أي أعذار تعوق تنفيذ هذه الأوامر، فقام السيد عمر والمشايخ بإرسال رسالة أخرى لقبطان باشا قالوا فيها:

"إن محمد علي باشا كافل الإقليم، وحافظ ثغوره، ومؤمن سبله، وقاطع المعتدين، وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشريعة مقامة في أيامه، ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدل ورفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها في أيام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم،

ويسلبون أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكُلَف الخارجة عن الحد، أما الآن فجميع أهل القطر المصري مطمئنون بولاية هذا الوزير.

وبعد أن تأكد محمد علي مساندة زعماء الشعب له، قرر الاستعداد للحرب والمقاومة بالقوة، وأرسل يستدعي حسن باشا وقواته من الصعيد، كما أن جميع الجنود الدلاة والأرناؤوط وقفوا إلى جانبه طمعًا في رواتبهم وعدم ترك مصر، وأرسل جيشًا بقيادة لاظ بك (كتخدا بك) شخصيًّا لمحاربة الألفي.

أقوى رجل في مصر

وعندما علم الألفي بزحف جيش محمد علي بقيادة لاظ كتخدا بك، ترك حصار دمنهور واصطدم بجيش محمد علي يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٦ بالنجيلة، فوقعت معركة شرسة احتدم فيها القتال وبذل لاظ بك كل ما يملك من قدرات هو وجيشه في مواجهة جيش الألفي، ولكنه خسر المعركة، وخسر معها ستمائة مقاتل من خيرة رجاله، ويصف الجبرتي هذه المعركة فيقول:

"فركب الألفي بجيوشه وحاربهم، ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة، انجلت عن نصرته عليهم، وانهزام العسكر وقُتِل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة، ولم يزالوا في هزيمتهم إلى بحر النيل وألقوا بأنفسهم فيه، وامتلأ البحر بطراطير الدلاة، وهرب كتخدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية، واستولى الألفي وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم، وأرسل رءوس القتلى والأسرى إلى القبودان صالح باشا، وأُشيع خبر هذه الواقعة في الناس وتحدثوا بها، وانزعج محمد علي باشا والعسكر انزعاجًا عظيمًا"

يا لها من إهانة كبيرة لحقت بلاظ بك المعروف بكتخدا بك، لقد خذل سيده بلا شك، وهو الذي وعده بالنصر، لقد كان لاظ حزينًا؛ ليس فقط لهزيمته، ولكن لعدم قدرته على مواجهة الباشا بهذه الهزيمة المهينة،

ولكنه تعجب كيف يفشل في هزيمة قوات الألفي ومعه جنود مدربون ومسلحون، بينما لا يستطيع الألفي اقتحام دمنهور وبها مقاومة شعبية يقودها نقيب الأشراف بدمنهور بتوجيه من السيد عمر مكرم، إنه بالفعل أمر محير، فلا يوجد جندي واحد بدمنهور يقاتل مع شعبها! ولم ينم لاظ في تلك الليلة في منوف، وأخذ يحدث نفسه عن مكانة السيد عمر مكرم في مصر، إنه أقوى رجل في مصر، أقوى من الألفي ومن محمد علي بل ومن قبطان باشا، فهو يستمد قوته من الشعب، وله من ينوب عنه في كل مدينة، فقد كانت نقابة الأشراف على مستوى مصر بالكامل لها تنظيم محكم، وتخضع بالكامل لإرادته، والشعب بدوره يحترم الأشراف في مصر ويسمع لهم ويطيع، أليسوا من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أما الألفي، فقد تشجع بهذا الانتصار وعاود حصار دمنهور، وقد زحف هذه المرة مُجَهَّزًا بمدافع كثيرة يقوم عليها رماة من الأروام أمده بهم الإنجليز، ولكن الألفي لم ينل من دمنهور منالًا؛ إذ دافع أهلها عنها رجالًا ونساءً دفاع الأبطال، وردوا هجمات المماليك المرة بعد المرة، وفي خلال الحصار، أرسل أهلها إلى السيد عمر مكرم وإلى محمد علي باشا بما يجدر بهم عمله، فجاءهم الجواب بوجوب الاستمرار على المقاومة، وأمدهم السيد عمر بكل ما يحتاجون إليه من الذخيرة.

ويقول الجبرتي عن ذلك:

"رجع الألفي إلى البحيرة وأراد دمنهور، فامتنع عليه أهلها وحاربوه وحاربهم، ولم ينل منهم غرضًا، والسيد عمر مكرم يقويهم ويمدهم ويرسل إليهم البارود وغيره من الاحتياجات"

وظل الألفي حوالي شهر، يحاول الاستيلاء على دمنهور فيرتد عنها خائبًا، وقد أثر هذا الفشل في تطور الأحوال تأثيرًا كبيرًا، إذ يمكن اعتبار دفاع دمنهور ذلك الدفاع الذي جمع بين الشجاعة والثبات، وكذلك تخاذل رؤساء المماليك الكارهين للألفي، من أهم الأسباب المباشرة التي أحبطت الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالي وبين الإنجليز، لإبعاد محمد علي عن مصر. ولم يكن ثبات أهل دمنهور غريبًا، فقد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمثابرة من قبل في أثناء الحملة الفرنسية، في ظروف تختلف عن الظروف التي قاوموا فيها قوات الألفي، مما يدل على ما فطروا عليه من الشجاعة.

تحويل شراع القبطان

وانتهز محمد علي فرصة انهماك الألفي في محاصرة دمنهور، وأرسل إلى حاشية صالح باشا القبطان مزيدًا من الهدايا والرشاوي ليحولهم إلى صفه، وقد أحدث المال في نفس صالح باشا ونفوس بطانته تحولًا كبيرًا في وجهة نظرهم، وزاد هذا التحول خيبة الألفي في الاستيلاء على دمنهور، وما تبين لصالح باشا من انقسام المماليك وتخاذلهم، فإن البرديسي لما رأى ارتباط الألفي بالإنجليز أعرض عن تأييده لحقده عليه، ولأنه من أنصار الالتجاء إلى فرنسا، وقد تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على المماليك والركون إليهم؛ لأن الألفي تعهد أن يؤدي له ١٥٠٠ كيسا، كان ثمن إعادتهم للحكم، وأوفد رسولًا إلى زملائه إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي وعثمان بك حسن، وكانوا وقتئذ بالصعيد يسألهم معاونته في أداء هذا المبلغ، ولكنهم ردوا الرسول خائبًا، وعلم صالح باشا بذلك؛ فغضب على الألفي وأخذ يفكر في تغيير خطته، ورأى أن تأييد زعماء الشعب لمحمد علي ورفضهم ولاية موسى باشا وفشل الألفي في اقتحام دمنهور، كل هذه الأسباب تبرر تحويل شراعه إلى محمد علي.

وفي غضون ذلك وردت من الباب العالي إلى صالح باشا رسالة؛ تطلق يده وتفوض إليه أن يتصرف على ما يراه صالحًا، ومعنى ذلك أن حكومة الأستانة رجعت عن فرمانها القاضي بعزل محمد علي باشا عن ولاية مصر، فقرر صالح باشا أن يثبت محمد علي في منصبه وأرسل إليه رسوله لوضع اتفاق جديد. ويستقبل محمد علي رسول صالح باشا بالبشاشة قائلًا:

- أهلًا بك وبأوامر قبودان باشا التي سننفذها بكل سرور وامتنان.
- الباشا يطلب منكم أن تؤدوا للباب العالي ٤٠٠٠ كيسا
- هل يمكن الانتظار لحين تدبيرها؟
- لا توجد مشكلة، ولكننا سنأخذ نجلكم إبراهيم معنا إلى الأستانة رهينة؛ لحين إرسال المطلوب.
- ليس لدينا أي مانع..

وانتهت المشكلة بورود مرسوم إلى محمد علي يتضمن إبقاءه واستمراره على ولاية مصر، إذ إن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس. فَزُيِّنت القاهرة لهذا النبأ ثلاثة أيام متوالية وابتهج الشعب لانتصار إرادته.

ويستدعي الباشا ابنه إبراهيم ويختلي به ويبدأ الباشا حديثه قائلًا:

- ستذهب يا إبراهيم إلى الأستانة مع صالح باشا..
- كما تشاء يا أبي..

- لن يطول مكوثك هناك؛ فسوف أعمل على إرسال المال المطلوب في فترة قصيرة.
- إنني أثق في حكمتكم يا أبي، حتي وإن طال مكوثي هناك.
- المهم يا بني، إنني سأرسل معك بعض الهدايا لبعض رجال الحاشية في الأستانة، سأذكرهم لك واحرص على تسليمها بنفسك لكل واحد منهم.
- سأبذل قصاري جهدي يا أفندينا..

وهكذا انتهت المؤامرة بالإخفاق والفشل، وأقلع القبودان صالح باشا بعمارته البحرية من الإسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٦ ومعه موسى باشا وإبراهيم بن محمد علي. وبذل محمد علي جهده بمساعدة زعماء الشعب؛ فأدى الأربعة آلاف كيسا كاملة في أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٦، فجاءه رسول من الأستانة، يحمل فرمانين أحدهما بإقراره في حكمه، والثاني يأمره فيه بتسفير المحمل إلى الكعبة المشرفة وإرسال القمح المطلوب إلى جدة، كما يُذَكّر محمد علي أن الباب العالي قد أعطى الأمان للمماليك في مصر ويطلب منه عدم محاربتهم. وبذلك استقر محمد علي على عرش مصر.

الآن ملكت مصر

ونعود إلى الألفي عدو الباشا اللدود الذي فشل في اقتحام دمنهور، وتبرم من حوله من الجنود والعربان لعدم وجود أي إمدادات، وكان ذلك أوان القيظ، وليس ثَمَّ زرع ولا نبات فضاقت على جيوشه الناحية، وقد طال انتظاره للإنجليز، ويقترب منه شيخ القبيلة قائلًا:

- لن نستطيع الاستمرار في هذا المكان لفترة أخرى وعلينا الرحيل!

فيقول الألفي:

- اصبروا؛ لم يبق إلا قليل..
- إما أن تنتقل معنا إلى جهة قبلي، فإن أرض الله واسعة، وإما أن تأذن لنا بالرحيل في طلب القوت!
- فهل هذا ما وعدتموني به؟
- وأين ما وعدتنا أنت به؟ أين الإنجليز؟
- إنهم في الطريق..
- لم يعد رجالي يصدقون ذلك.

فما كان وسع الألفي إلا الرحيل مكظومًا مقهورًا من معاندة الدهر في بلوغ المآرب، وسار كئيبًا حزينًا، ومعه القوات العديدة التي كان يحسب أنها تصل به إلى عرش مصر ليحولها إلى دولة كبرى ناهضة متقدمة كما وعده

الإنجليز، فالفرق بينه وبين محمد علي أن كلاهما قرر أن ينهض بمصر، ولكن أحدهما على الطريقة الفرنسية، والآخر على الطريقة الإنجليزية، وكل منهما يريد أن يحولها إلى مشروعه الخاص الذي ينعم به ويحقق ذاته وطموحه الذي لا حدود له، ولكن كان ما يميز محمد علي أنه راهن على قوة الشعب، ولقد كان كلا الرجلين من ذلك النوع من القادة الذين لا يتكررون كثيرًا في تاريخ مصر، والملك بيد الله يؤتِه من يشاء من عباده.

رحل الألفي على أية حال، وسار معه جيشه الضخم المكون من ستة آلاف من العرب، وستمائة من فرسان المماليك، وثمانمائة من الترك والنوبيين، ومعه من آلات القتال عشرة مدافع، وعدد لا يُحصى من البنادق والأسلحة، وكانت الميرة والمئونة تحملها آلاف عدة من الإبل. ويقرر محمد علي باشا الاستعداد لقتال الألفي مستغلًا انخفاض روحه المعنوية هو وقواته، ويشيع الباشا أنه سيقود الجيش بنفسه هذه المرة.

ولننتقل كعادتنا إلى بعض ما كتبه الجبرتي عن ذلك إذ قال:

"وفي يوم الاثنين عاشره، وصلت الأخبار بوصول الألفي إلى ناحية الأخصاص، وانتشار جيوشه بإقليم الجيزة، وكان الباشا معزومًا ذلك اليوم عند سعودي الحناوي بسوق الزلط وحارة المقس، وركب قبيل العصر وذهب إلى بولاق، وأمر العساكر بالخروج ولا يتخلف أحد لخامس ساعة من الليل، وعدا بمن معه إلى بر أمبابة. وفي ليلة الأربعاء، وقع بين الألفي والعسكر معركة، وانحاز العسكر وتترسوا بداخل الكفور والبلاد، ووصل

منهم جرحى إلى البلد، واستمر الأمر على ذلك وهم يهابون البروز إلى الميدان وأخصامهم لا يحاربون المتاريس والحيطان. وفي يوم الثلاثاء، ركب الألفي بجيوشه وتوجه إلى ناحية قناطر شبرامنت، فلما عاينهم الباشا ومن معه مارين، ركب بعسكره من ناحية كفر حكيم وما حوله، وساروا إلى جهة الجيزة ونصب وطاقه (معسكره) بحريها، وباتوا تلك الليلة وعملوا شنكًا في صبحها وهم يشيعون هروب الألفي، والحال أنه مر في جيش كثيف وصورة هائلة، وقد رتب جنوده وعساكره طوابير وبين يديه النظام الذي رتبه على هيئة عسكر الفرنسيس، ومعهم طبول بكيفية خلعت قلوبهم وعقولهم، والباشا واقف بجيوشه ينظر إليه تارة بعينه وتارة بالنظارة، ويقول هذا طهماز الزمان ويتعجب، وقال لطائفة الدلاة تقدموا لمحاربته وأنا أعطيكم كذا وكذا من المال، فلم يجسروا على التقدم لما سبق لهم معه.

وفي يوم الخميس، حضر أشخاص من العرب إلى الباشا، وأخبروه أن الألفي قد مات يوم وصوله إلى تلك المحطة، وذلك ليلة الأربعاء ، ونزل به خلط دموي فتقيأ ثم مات، وذلك بناحية المحرقة بالقرب من دهشور، وأن مماليكه اجتمعوا، وأمَّروا عليهم شاهين بك، وذلك بإشارة أستاذهم وأن طائفة أولاد علي انفصلوا عنهم ورجعوا إلى بلادهم وآخرين يطلبون الأمان.

فاشتبه الحال وشاع الخبر، وصارت الناس ما بين مصدق ومكذب، واستمر الاشتباه والاضطراب أيامًا، حتى إن الباشا خلع على ذلك المخبر بعد أن تحقق خبره فروة سمور، وركب وشق من وسط المدينة والناس ما بين مصدق ومكذب، ويظنون أن ذلك من مكايده وتحايلاته لأمور يدبرها، إلى أن حضر بعض الخدم إلى دوره وأخبروا بحقيقة الحال، كما ذكر فعند ذلك زال الاشتباه، وعد ذلك من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتى إنه قال في مجلس خاصته:

- الآن ملكت مصر

ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا إلى ناحية قبلي. ثم إن الباشا أرسل إلى أمراء الألفي مكاتبة يستميلهم، ويطلبهم للصلح ويدعوهم للانضمام إليه ويعدهم أن يعطيهم فوق مأمولهم، وجاء جواب الرسالة من أمراء الألفي للباشا وعليه ختم شاهين بك وباقي أقرانه خشداشينه الكبار، مصطفى كاشف أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي، ومن كان كاتبهم بالمعنى السابق يذكرون في جوابهم:

"إن كان سيدهم قد مات وهو شخص واحد، فقد خلف رجالًا وأمراء وهم على طريقة أستاذهم في الشجاعة والرأي والتدبير، ونحو ذلك. وليس كل مدع تسلم له دعواه، ومن أمثال المغاربة "ما كل حمراء لحمة ولا كل بيضاء شحمة".

وذكروا في الجواب أيضًا أنه إن أصطلح من كبرائهم الكائنين بقبلي وهم إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن وباقي أمرائهما كنا مثلهم، وإن كان يريد صلحنا فليعطنا ما كان يطلبه أستاذنا من الأقاليم، ونحو ذلك. وهكذا مات الألفي وطاب لمحمد علي ملك مصر، وكان البرديسي قد مات قبله بحوالي شهرين، أما من تبقى من أمراء المماليك فلا وزن لهم عند الباشا، والطريف أن محمد علي عند سماعه خبر وفاة عدوه اللدود لم يصدق ذلك، إذ احتفظ بالبدوي الذي أتاه بالخبر لمدة أربعة أيام لحين التحقق منه، وعندما تأكد الخبر السعيد له، أهداه فروة وأغدق عليه الذهب، ثم أمره أن يجوب شوارع المدينة معلنًا الخبر.

وكانت وفاة الألفي مفاجأة سارة بالنسبة للقنصل الفرنسي دروفيتي، فحاول الوقوف على أسباب وفاته عن عمر يناهز خمسًا وخمسين عاما كي يرسل الخبر لحكومته، فوفاة الألفي قد تنهي محاولات هيمنة بريطانيا على مصر. ويقوم بإعلام تاليران مستبعدًا بشكل كبير فرضية الاغتيال إذ يكتب: "أتشرف أن أعلن لمعاليكم على وجه السرعة نبأ وفاة الألفي بك في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، وهناك رأيان لدى أتباعه، فهناك من يُرجع ذلك إلى نوبة غضب حادة ألمت به، وجعلته يهوي بعصا غليظة على رءوس أربعة من البدو من بينهم شيخ القبيلة، في حين يدّعي بعضٌ أن التقيؤ والتشنجات العصبية التي توفي على إثرها كانت نتيجة لسُم دسته

نساؤه، ومن بينهن ابنة الشيخ الذي قتله، وقبل موته كان قد اختار شاهين بك خليفة له"

وكان الإنجليز قد وعدوا الألفي قبل وفاته بإرسال قوة بريطانية إلى مصر لتنفيذ مخططاتهم وتدعيم مركزه، وظل ينتظر هذه القوة دون جدوى حتى اضطر إلى مغادرة البحيرة، ثم مات قبل وصول الإنجليز. ويُقال أن أحدهم قد سمعه يهمس قبل أن يسلم روحه قائلًا:

– كل شيء انتهى، من الآن فصاعدًا ستصير مصر لمحمد علي، لا أحد سيملك القوة للوقوف في وجهه.

وكان محمد علي قد قال عنه من قبل:

– لن أنعم بالسلام ما دام الألفي حيًّا، نحن نشبه راقصين على حبل مشدود مع اختلاف أن له عكازين في رجليه.

حتى يأتي أفندينا الباشا

ولم يكد محمد علي يلتقط أنفاسه بعد وفاة الألفي، ويتوجه إلى الصعيد لقتال باقي أمراء المماليك، على اعتبار أنها ستكون مهمة سهلة، حتى كان للإنجليز رأي آخر، فقد أرسلوا سفنًا حربية لتهديد الدولة العثمانية في عقر دارها، ولكنها لم تجدي نفعا فقرروا توجيه حملة إلى مصر للسيطرة عليها بمساعدة المماليك، وكان الباب العالي قد حذر الولايات التابعة له ومن بينها مصر، باحتمال هجوم الإنجليز على إحدى الولايات التابعة للدولة بعد فشل محاولات سفنهم في تهديد الباب العالي، وبالفعل لم ترض إنجلترا أن تظهر بمظهر الفشل، فأرسلت حملة يبلغ عددها ٧٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال ماكينزي فريزر أمام الإسكندرية في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧، وهي الحملة التي كان الإنجليز قد وعدوا الألفي بإرسالها، ولو أنها تقدمت في مجيئها أربعين يومًا فجاءت والألفي على قيد الحياة وحوله تلك الألوف من المقاتلة، لكان محتملًا أن يتحول مجرى الحوادث في مصر، بيد أنها وصلت بعد موت الألفي وتشتت أنصاره وانفضاض جيشه.

ورست الحملة عند الإسكندرية، وسلمت المدينة من غير مقاومة تذكر معتمدة على مكر القنصل الإنجليزي، ثم احتلت رشيد بسهولة فظن الإنجليز أنهم في نزهة حربية فانتشروا في شوارع المدينة وحاراتها وألقوا

أسلحتهم وتفيئوا الظلال نائمين ناعمين، وأنهم لكذلك إذا بحاكم المدينة علي بك السلانكي قد أمر جنوده من الأتراك والأعراب وأهالي المدينة، فأُطلقت عليهم النيران من النوافذ ومن فوق الجدران، فبادت الفرقة المقتحمة عن آخرها. وأُرسلت الأسرى ورءوس القتلى إلى القاهرة تأييدًا لخبر الانتصار، وقد وصل خبر الحملة لمحمد علي وهو بأسيوط يحارب المماليك ويطاردهم، فخاف جانب الإنجليز وتلكأ أولًا، ولكن ما لبث أن اتخذ الأُهبة للسفر وترك العلماء المصاحبون له يقومون بعقد الصلح ويجيبون المماليك إلى كل مطالبهم، على شرط أنهم يحاربون العدو المهاجم، وقرر محمد علي الاعتماد على صديقه دروفتي قنصل فرنسا الذي كان يساعده على تدريب الجنود على طرق الحرب الحديثة وبناء الاستحكامات. وقال الجبرتي يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة للتشاور فيما يجب عمله حيال هجوم الإنجليز في أثناء غياب الباشا عن العاصمة:

"وفي يوم الثلاثاء حصلت جمعية في بيت القاضي، وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار، ومحمد بك لاظ كتخدا بك والسيد عمر النقيب، والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ، فتكلموا في شأن حادثة الإنكليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم، فإنهم أعداء الدين والملة ويجب أن يكونوا والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد.".

وفي هذا الاجتماع بدأ السيد عمر الحديث قائلًا:

– وصلت إلي اليوم رسالة من السيد حسن كريت، نقيب أشراف رشيد يقول فيها إن الإنكليز لما أوقع بهم في رشيد ورجعوا في هزيمتهم إلى الإسكندرية، استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلي رشيد، ومعهم المدافع الهائلة، فنرجو الإمداد بالرجال والجبخانة، وقد نبهت على الناس أن يستعدوا للجهاد وأن يحملوا ما تيسر من الأسلحة.

فقال الشيخ الشرقاوي:

– لابد في هذه الظروف أن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذاء كما هو شأنهم.

وأضاف الشيخ الأمير:

– كما يجب أن يساعد بعضهم بعضًا على دفع العدو..

قال حسن باشا:

– سننبه على العساكر بالالتزام بكل هذا، ولكن يتحتم علينا تحصين المدينة في غياب أفندينا الباشا.

فقال السيد عمر مكرم:

– إن الإنكليز لا يأتون إلا من البر الغربي، والنيل حاجز بين الفريقين، وإن الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحروب، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل من باب الحديد إلى النيل، ولقد طلبت من الرجال إصلاحه وإعادة حفره،

ووزعت أجرة حفره على مياسير الناس، فجعلت على بعضٍ أجرة مائة رجل من الفعلة، وعلى بعضٍ أجرة خمسين وعشرين، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس والأروام والشوام والأقباط، ووفرنا المقاطف والغلقان والفئوس والقزم، كما شرعنا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية.

كان لاظ يتابع الحوار بين العلماء، وخاصة ما يقوله السيد عمر، ويقارن بينه وبين سيده الباشا، إن كلاهما يسمع جميع الحاضرين وما يقولونه باهتمام بالغ، وكلاهما يتحدث بشكل حاسم ولا يتردد في اتخاذ القرار الصائب، ولكن السيد عمر يقول ويفعل في الوقت نفسه، بل إنه يفعل قبل أن يقول، يا له من رجل له من المهابة والوقار ما يجعلك تقتنع بما يقول، ولا تشك لحظة في صدق ما يقول، ولكن لاظ لا يتخيل أن يتم عمل دون علم سيده وإقراره، فماذا يفعل حيال كل هذه القرارات التي يتم اتخاذها، بل وتم تفعيل بعضها بالفعل. واستمر الحديث على هذا النحو، ولاظ بك لا يتكلم كثيرًا، إلى أن قال السيد عمر:

– ولقد جمعت كثيرًا من المجاهدين من أولاد البلد والمغاربة وأتراك خان الخليلي، وكثيرًا من العدوية والأسيوطية لنتوجه في صباح باكر لنجدة إخواننا في رشيد والحماد، فانظروا ماذا تقررون في ذلك.

فرفض لاظ بك وقال:

– لا تذهبوا إلى أي مكان حتى يأتي أفندينا الباشا ويرى رأيه في ذلك.

فلم يسافر السيد عمر ومن اجتمعوا معه، ولكنه لم يتمكن من منع من سافروا بالفعل في توقيت مبكر. وكان السيد عمر يذهب في صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات وحفر الخندق، وكثيرًا ما يبقى هناك النهار كله في خيمة أُعدت له، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة في نفوس الناس جميعًا، وقد بذل كل إنسان ما في وسعه لإقامة الاستحكامات، والذي حدث أن الجنرال فريزر كان قد أرسل قوة كبيرة إلى رشيد، على رأسها القائد استوارت لينتقم مما أصابه من الهزيمة الأولى، فنجحت أولًا، ولكنها سرعان ما تقهقرت عند الحماد، وعادت إلى الإسكندرية خوفًا من أن يصيبها ما أصاب سابقتها، وقام فريزر بقطع سد بحيرة مريوط؛ وأُحيطت الإسكندرية بالماء حتى يأمن من أي هجوم مفاجئ، وظل فريزر بالإسكندرية ينتظر ما يمكن أن يقدمه له المماليك خلفاء الألفي من مساعدة، ولم يكن يعلم أن محمد علي قد تفاوض معهم من خلال العلماء ليقفوا بجانبه ضد الحملة الإنجليزية، إذ أقنع العلماء شاهين بك والأمراء أن قيامهم مع الإنجليز مجلبة للشر وفيه خروج عن الدين، خاصة أن الإنجليز قوم متمسكون بشعائرهم الدينية، ويرفعون الصليب على راياتهم وليسوا كالفرنسيين لا يُعرف لهم دين.

ويحضر محمد علي إلى القاهرة، وبعد أن يطمئن على الدفاعات والاستحكامات التي تمت في غيابه، يتوجه بنفسه على رأس جيش لقتال الإنجليز ويصاحبه القنصل الفرنسي في جميع تحركاته، ويكون الصدام الأول مع الإنجليز في صالح الباشا، مما يضطر فريزر لطلب الصلح فيسمح له الباشا بالانسحاب بعد تبادل الأسرى ومداواة الجرحى، وهكذا فشلت حملة فريز واطمأن الباشا، وأرسل للسلطان محمود يحيطه علمًا بما تم؛ فابتهج ابتهاجًا عظيمًا وأرسل رسولًا إلى محمد علي يظهر له ابتهاجه ويهدي إليه سيفًا ثمينًا وخلعة، وكذلك أنعم على إبراهيم وطوسون ولدي محمد علي، وعلى حسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة.

على حساب الأهالي

لما عاد الباشا إلى القاهرة طالعه الناس بالشكوى من مسلك الجنود الدلاة والأرناؤوط وإخلالهم بالنظام، والواقع أن هؤلاء الجنود كان دأبهم النهب والسلب والعدوان على الناس، وانتهاك الحرمات والاستهانة بالأرواح والأموال، ولا يكفون عن المطالبة بالمال الذي لا يشبعون منه. وبينما كان الباشا مجتمعًا مع لاظ بك وبعض الخاصة من رجاله بمنزله بالأزبكية، إذ بالعسكر يجتمعون حول المنزل يهتفون مطالبين برواتبهم، فخرج إليهم لاظ بك وصاح بهم:

- ماذا تريدون؟
- نريد رواتبنا المتأخرة..
- لا داعي لكل هذا الضجيج، فسوف تحصلون على كل ما تريدون.

فتعالت الأصوات:

- متى؟ وقد سمعنا هذه الوعود كثيرًا!
- غدًا سوف تحصلون على رواتبكم
- لم نعد نصدقكم، ولن نبرح هذا المكان إلا بعد أن نحصل على ما نريد، أنتم كاذبون.

فلما لم يجد لاظ أية نتيجة من حواره معهم، تركهم ودخل للباشا ليحاول أن يجد حلًّا، وما إن دخل لاظ حتى بدأ الجنود في إطلاق النار، فأمر لاظ بك حرس السراي الرد بإطلاق النار على العسكر المتمردين وقال للباشا:

– لابد من ردع هؤلاء الجنود وتأديبهم؛ فقد زاد الأمر عن الحد يا أفندينا..

– صدقت يا لاظ، والأولى بنا أن نصعد إلى القلعة لنقيم بها، فلم يعد هذا المكان آمنًا بعد الآن، ولابد من تأديب هؤلاء الحمقى

– إنهم لا يستحقون أي أموال على الإطلاق؛ لأنهم لم يقاتلوا، بل أولاد البلد والفلاحين هم الذين قاوموا الإنكليز وهزموهم، يا لوقاحتهم!

واستمر إطلاق النار إلى أن نفذت ذخيرتهم، فغادروا المكان ثم عادوا مرة أخرى.

وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي، انتقل محمد علي وخاصته سرا إلى القلعة دون أن يشعر الجنود بمغادرته سراي الأزبكية المكشوفة من كل جانب، فلما علموا بالخبر ثارت ثائرتهم، واقتحموا السراي ونهبوها وأخذوا كل ما وجدوه بها، وتجمهروا في أنحاء المدينة وأطلقوا أيديهم في النهب والسلب واستفحلت الفتنة واضطربت لها العاصمة، وكادت تقضي

على الأمن والنظام فيها، وقرر الباشا نفي أحد قادتهم المحرضين إلى خارج البلاد، وقال للاظ بك وهم بالقلعة:

- هؤلاء الأخلاط المجرمون يا لاظ ليسوا جيشي الذي سيحقق ما أريد، سوف أُعد يومًا ما جيشًا نظاميا منضبطا.

- وماذا ستفعل مع هؤلاء يا أفندينا؟

- لا تقلق يا لاظ، فهناك عديد من الحروب في انتظارهم وستقضي عليهم.

ولقد كان ترك محمد علي للأزبكية وصعوده إلى القلعة يحمل كثيرًا من المعاني، فكما يقول الرافعي: والواقع أن سكن ولي الأمر في الأزبكية؛ أي في قلب العاصمة؛ يجعله أميل إلى الإصغاء لمطالب الشعب إذا هاجت خواطره، لأن الأزبكية كان الميدان الذي تحتشد فيه الجموع إذا حفزها حافز من شكوى أو احتجاج، فإذا ما سكنها ولي الأمر كان أقرب إلى رؤية مظاهرات الشعب، وأدنى للاستماع إلى صيحاته ومطالبه، أما إذا استقر في القلعة، فكأنه يريد أن يمتنع في قمة الجبل، ويضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد، ويصم أذنيه عن سماع صيحات الجماهير، وينظر إلى القاهرة كما ينظر النسر المحلق في السماء إلى فريسته على الأرض.

ولا يذهب عنك أن القلعة تربض على ذروة الجبل، كما يربض الأسد في عرينه، وهي بأبراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتتسلط عليها،

فكأنما بناها صلاح الدين الأيوبي في ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسلاطين معقلًا يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها، بينما كان هدفه الأساسي من بنائها هو الدفاع عن العاصمة ضد أي غزو، ويكفيك أن تصعد يومًا إلى القلعة، وتمد نظرك إلى ما يتناوله الأفق، لتتضاءل القاهرة أمامك، إذ تراها مبسوطة أمام عينيك بشوارعها، وميادينها، وقصورها، ومبانيها، وأشجارها، وحدائقها، كرقعة صغيرة تكاد تكون في قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامتة، ولا تكاد ترى أشباح الناس تتحرك في شوارعها وطرقاتها أن تميز بين مسيرهم ودبيب النمل، وهيهات أن تبلغ سمعك أصواتهم مهما علت أو اكتظت بهم الميادين في مختلف نواحيها القريبة والبعيدة.

فالحاكم المستبد إذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره، صامتةً لا يُسمع لها صوتًا، جامدةً لا يحس لها ركْزًا، في ذلك العلو الشاهق، تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاغرة أفواهها على المدينة، لا جرم أن تعتريه وساوِس السلطة المطلقة، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه. وبينما كان الباشا مستقرًّا مطمئنًّا بالقلعة، تزايدت فتنة الجنود وشملت القاهرة كلها، ولما زاد الأمر عن الحد وضج الناس من سلوكياتهم، قرر السيد عمر مكرم والعلماء التدخل لحل الأزمة، فاجتمعوا في بيت السيد عمر مكرم ومرة أخرى في القلعة نفسها، ثم في بيت السيد محمد المحروقي كبير التجار.

وفي أحد هذه الاجتماعات قال السيد عمر:

- أنتم تعرفون أن الحل دائمًا في مثل هذه الأحوال هو جمع المال..

فقال السيد محمد المحروقي:

- بالتأكيد يا سيد عمر؛ إن المال له مفعول السحر مع هؤلاء الجنود، فهل يوجد ما يكفي من المال في خزانة الحكومة لدى الباشا؟

- لا أعتقد ذلك، وإلا لكان قد قام بتهدئتهم به، وعلى أية حال، فلابد أن نقوم نحن بحل هذه المشكلة، فجميعنا متضررون منها.

- فماذا تقترح؟

- أرى أن نتحمل نحن والأهالي إتاوة جديدة نؤديها للحكومة لتوزعها على الجنود وتخمد الفتنة، فانظروا كم سيكون المبلغ المناسب لهذا الغرض.

فقام السيد محمد المحروقي بحساب المبلغ التقريبي طبقًا لعدد الجنود ومتوسط رواتبهم، وكان ماهرًا في مثل هذه الأمور بحكم عمله بالتجارة أبًا عن جد، ثم قال:

- أرى أن ألفي كيس سيكون مبلغًا مناسبًا.

فاتفقوا على ذلك وأبلغوا الباشا، فجُبيت الإتاوة ودُفعت للجنود، واستتبت السكينة على حساب الأهالي.

وافتتنوا بالدنيا

من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلى التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسته على قمة المجد، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن؛ تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم، ولأن محمد علي كان مدينًا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته، وتذليل العقبات التي اعترضته، وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له، فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها، وتنزع به إلى الاستبداد بالأمر، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه، طمحت نفسه إلى الاستبداد بالأمر، وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم، وسعيهم في دفع المظالم عن الناس، كما كان لاظ بك أيضًا يستشيط غضبًا من السيد عمر مكرم وباقي العلماء، ويشعر أنهم يقررون كل شيء ويديرون جميع أمور الدولة، ويبدو أن الباشا أيضا قد انتهى من حاجته لهؤلاء الزعماء، وقرر أن يتخلص منهم، ولكن بأسلوب ماكر وخبيث، فقال يومًا للاظ بك:

– أريدك يا لاظ بك أن تُبطِل مسموح المشايخ، وتعفي الأراضي التي يملكونها من الضرائب تمامًا..

- لم أكن أتوقع ذلك منكم يا أفندينا؛ فكم أكره هؤلاء الزعماء، ولكن كما تشاء أيها العزيز.

- لا تقلق يا لاظ؛ فليس الأمر كما ظننت، إنما هي خطة ستؤتي ثمارها على ما أظن.

- فهمت يا أفندينا، ولكني لم أدرك تمامًا المقصود من ذلك..

- أريد أن أشغلهم بالدنيا يا لاظ بك، وأورطهم معي فيما يتم جبايته من أموال، وقد يفقدون تعاطف الرعية.

- ولكن ليسوا جميعًا من ملاك الأراضي يا أفندينا!

- عندما يعرفون هذه الامتيازات الجديدة سيسعون لامتلاك مزيدٍ منها.

- ولكنني على يقين يا أفندينا أن بعضهم لن يتورط في كل هذا، وخاصة السيد عمر مكرم.

- أعرف يا لاظ، ولكن عدم تورطه سيجعله نظيفًا بين الملوثين؛ فيزداد كرههم له وحقدهم عليه؛ فيبحثون له عن ذريعة للتخلص منه وإبعاده.

- وعندها سيلجئون إليك يا أفندينا لتنقذهم منه، أليس كذلك؟

- عفارم يا لاظ بك؛ لقد بدأت تفهم، وسوف أنفيه خارج القاهرة بعيدًا عن الأحداث، وهذا أقصى ما يمكن فعله مع رجل مثله محبوب من الجماهير.

- وهل سترفض في البداية يا أفندينا طلب المشايخ وتدافع عن السيد عمر؟

فضحك الباشا قائلًا:

- سأجعلهم يلحون عليَّ يا لاظ..

وأسرع لاظ في إعلان قرارات الباشا الجديدة وانتشرت بين الناس. وبالفعل ومع مرور الوقت تحقق كثيرٌ مما توقعه الباشا مع عدد لا يستهان به من العلماء، وقد غضب الجبرتي عند حدوث ذلك وكتب عن هذا الموضوع ما يلي:

"ولما انقضى هذا الأمر، واستقر الباشا واطمأن خاطره، وخلص له الإقليم المصري، فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها، واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة، وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم، إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء، واتخذوا الخدم والأعوان، وانقلب الوضع فيهم بضده، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام، وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والحسد والحقد على الرياسة.."

أما السيد عمر مكرم فكما توقع لاظ بك؛ لم يخضع لمغريات محمد علي باشا، فلم تَلِنْ قناته للمنافع والمغريات، ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات، وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته، وأيده في مسلكه بعض الشيوخ، ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلى أسباب المنافع، والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور. وكان طبيعيًّا أن محمد علي بعد انفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم على احترامها، فكان عليه أن يزيح السيد عمر مكرم ثم ينفيه إلى دمياط بعيدًا عن العاصمة، مستغلًا الاختلافات التي حدثت بين العلماء عندما فرض محمد علي ضرائب على الأوقاف، واعتراض السيد عمر على ذلك فاستبدله الباشا بالشيخ محمد السادات، ليصبح نقيبًا للأشراف بدلًا عنه.

وهكذا تم إبعاد السيد عمر تنفيذًا لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير أن يطيح بكل الذين ساعدوه في الوصول إلى الحكم، ووجد محمد علي تشجيعًا وتأييدًا – بل تحريضًا – من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم، مقابل نِعَم رخيصة أغدقها عليهم، ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر على زعيمهم، وعندما ذهبوا إليه محتجِّين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى أقذع العبارات، وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه، ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت. وبَدَهِيٌّ أن زعماء الأمة الشرفاء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم، لم يحسبوا حسابات لذلك اليوم اعتمادًا على الجماهير، أو استنادًا إلى ثقتهم في

حسن نية محمد علي، ولا يمكن في الحياة السياسية الاعتماد على حسن نية الحكام، فالسلطة في حد ذاتها مفسدة، ومهما كان ورع الشخص، فإن السلطة ربما تفسده، وكان من الضروري تطوير النظام السياسي بشكل يحمي الأمة من تقلبات النفوس أمام خمر السلطة، وإغراء القوة، وكان الزعماء في ذلك الوقت بالذات يمتلكون حركة جماهيرية حققت من القوة والاتساع ما يكفل لها ذلك لو أرادت، وكان لابد أيضًا من تحويل الحركة الجماهيرية إلى مؤسسة ذات تنظيم يكفل لها الاستمرار، ولا يجعلها عرضة للمؤامرات وتقلبات بعض المشايخ تحت إغراء المال أو الحسد.

وبتلك المؤامرات استطاع محمد علي أن يتخلص من السيد عمر مكرم، ليس هذا فحسب، بل إنه باستخدام بعض المشايخ في الإيقاع بالسيد عمر مكرم، كان قد أجهز على المؤسسة الأزهرية بكاملها، فالجمهور رأى في عملهم معنى الخيانة والغدر، محمد علي نفسه احتقرهم بعد أن قبضوا المال لقاء عملهم هذا، وهكذا استطاع محمد علي الداهية أن يتخلص من الزعيم، وأن يسقط هيبة العلماء أمام الجماهير، وربما يكون هذا العمل قد أفاد محمد علي على المستوى الشخصي، ولكن هذا العمل كان التوطئة الأولى للقابلية للاستسلام، فَفَصْمُ العلاقة بين العلماء وبين الجماهير قد أفقد الطرفين إيجابيتهما، وباتت الجماهير بلا قيادة شرعية تعمل من خلالها في التصدي للقهر أو الاستبداد، فلو كان محمد علي قد اغتال عمر مكرم أو اعتقله أو قتل العلماء أو سجنهم، لكان تخلص من العلماء، ولكنه لم يكن قد قضى على

كيان هام كان ضروريًّا للصمود، وسواء قصد محمد علي ذلك أم لم يقصد، فإن النتيجة كانت مروعة على كرامة الشعب بعد ذلك؛ فقد تم كسر إرادته، وهكذا نجحت خطة الباشا التي وضَّحها للاظ بك نجاحًا ساحقًا، وتخلص من الزعامة الشعبية، وكان الباشا يشعر براحة كبيرة عند التحدث إلى لاظ؛ فهو يحدثه بما في نفسه، وهو ما لا يستطيع فعله مع شخص آخر، وحتى مع أقرب المقربين منه وحتى أولاده، وقد حاول محمد علي أن يفهم سر ذلك، بل ولام نفسه عليه، فكيف يفضي بكل أفكاره وأسراره إلى لاظ بهذه البساطة، ولكنها الثقة التي بلا حدود لشخص يكن لك من الحب والإعجاب ما لا يمكن وصفه وينبهر بكل ما تفعله.

المذبحة

يحتفل الباشا مع لاظ بك بنجاح المؤامرة على السيد عمر مكرم، ويتحدثان معًا عن أمراء المماليك، فيقول الباشا:

- لقد حان الوقت يا لاظ بك للتخلص من الأمراء.

- ولكنك صالحتهم يا أفندينا، وتركوا القتال وسكنوا العاصمة ولم يعودوا يشكلون أي خطر من أي نوع!

- أعرف يا لاظ، ولكنهم يحصلون على كثيرٍ من المال، ويمتلكون القصور والأراضي وينعمون بالخدم والأتباع..

- لقد انتهى تفكيرهم تمامًا في الوصول للحكم يا أفندينا وأنا متأكد من ذلك، ويمكنك سحب امتيازاتهم في أي وقت إن شئت، ولن تكون لديهم القوة للاعتراض، بل ولا يملكون تحريك الرعية أيضًا..

- أعرف كل هذا يا لاظ، ولكن مجرد وجودهم يزعجني..

- أمرك يا أفندينا، ماذا تريدنا أن نفعل؟

فضحك الباشا قائلًا:

- لا، لن نقرر هذه المرة ما يجب فعله، بل سنطلب منك أنت ذلك

- أنا يا أفندينا؟ ولكن كيف؟

- فكّر يا لاظ بك، فكّر ولا تقلق فسوف نساعدك.

فأخذ لاظ يفكر ثم قال:

– ما رأيك يا أفندينا لو نفتعل مناسبة كبرى أو احتفال ضخم، ونجمعهم كلهم هنا بالقلعة ونقتلهم، فهناك مكان بالقلعة إذا سقناهم إليه وأغلقنا عليهم الأبواب، فلن يتمكنوا من الهرب، ويمكننا حينها القضاء عليهم بإطلاق النار من أعلى الأبراج والأسوار.

– إنها فكرة جيدة، ولكن ما المناسبة يا لاظ التي يمكن أن ندعوهم إليها، والتي تستوجب تحركهم في موكب حافل لنسوقهم إلى حيث نريد؟

– ألم يرسل لك السلطان يا أفندينا كثيرًا من الرسائل لتوجه جيشًا لقتال الوهابيين في الحجاز؟

– ولكنني لم أقرر إرساله بعد..

– وأنا لا أقصد أن نرسله بالفعل، ولكن يمكن إيهامهم بذلك، فنقوم بدعوتهم لحضور حفل وداع لابنكم طوسون باشا قبل سفره على رأس ذلك الجيش يا أفندينا، فيتحرك الموكب ونوجهه إلى ذلك المكان.

– يا لها من فكرة رائعة يا لاظ بك!

– إنها قطرة من بحر أفكارك أيها العزيز

ويقر الباشا خطة لاظ، ويضيف إليها لمساته الخاصة، ويشرعان في تنفيذها في سرية تامة. وقام الباشا بإعلان تقليد ابنه طوسون باشا ليصبح ساري عسكر الركب الموجه إلى الحجاز، ويتم إنشاء معسكر بالفعل يحتوي

على عدد كبير من الخيام، ويتم حشد القوات فيه، وأظهر الباشا الاهتمام الزائد لإعداد الجيش، وزيادة في الخداع طلب من المنجمين أن يختاروا وقتًا صالحًا لإلباس ابنه خلعة السفر، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م

ويقول الجبرتي:

"فلما كان يوم الخميس رابعه، طاف ألاي جاويش بالأسواق، على صورة الهيئة القديمة في المناداة على المواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق على رأسه وراكب حمار عالٍ وأمامه مقدم بعكاز، وحوله قابجية ينادون بقولهم يا رن آلاي، يا رن آلاي، ويكررون ذلك في أخطاط المدينة، وطافوا بأرواق التنابيه على كبار العسكر والأمراء المصرية الألفية وغيرهم، يطلبون منهم الحضور في باكر النهار إلى القلعة ليركب جميعهم بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب، فلما أصبح يوم الجمعة سادسه، ركب جميعهم وطلعوا إلى القلعة، وطلع الأمراء المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم، فدخل الأمراء عند الباشا وصبحوا عليه، وجلسوا معه حصة من الوقت وشربوا القهوة وتضاحك معهم"

وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته وألمح إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر، وعندئذ نهض المماليك وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم، وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك، وكان يمر

بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة، وهي المنطقة التي اختارها لاظ بك، وفي نهايتها باب خرجت منه مقدمة الموكب، ثم تم إغلاقه على المماليك والجنود، وانهال عليهم ضرب النار من أعلى الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق، ولم يستطع المماليك الدفاع عن أنفسهم، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم؛ لضيق المكان الذي حُوصِروا فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئًا، فانصب عليهم الرصاص، وحصدهم حصدًا وجاءهم الموت من كل مكان. وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قُتِلوا جميعًا، ولم ينج منهم إلا رجل واحد كان في مؤخرة الصفوف، وقفز بجواده من فوق سور القلعة، وتلقى الجواد الصدمة ونجا هو، وفر متنكرًا إلى أن وصل سوريا فيما بعد.

وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي، استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال، حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف، أما ما فعله الباشا فهو غدرٌ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك، ولكن مهما بلغت سيئاتهم، فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال، لكان ذلك خيرًا له ولسمعته، ولو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ

مصر، لَمَا صار محمد علي هدفًا لأحكام التاريخ القاسية. ومن جهة أخرى، فإن الفتك بالمماليك بهذه الصورة الرهيبة، قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكنًا إلى زمن طويل أن تعود الطمأنينة إلى نفوس الناس.

الخبر السار

وكعادتهما بعد كل حدث يمران به، يجلس الباشا ولاظ بك يشربان القهوة، ويتحدثان معًا أو يتحدث الباشا وينصت لاظ بك، ويقول الباشا:

– حسنًا يا لاظ بك، لم يعد لدينا أي عذر بعد الآن نرسله للباب العالي؛ كي نؤجل الحرب في الحجاز..

– ألنا مصالح في هذه الحرب يا أفندينا أم إنها مجرد تنفيذ لأوامر السلطان؟ وعفوًا يا سيدي، فأنا لا أفهم طبيعة ما يحدث هناك، وماذا تكون هذه الدعوة المسماة بالوهابية؟

– ستفهم كل شيء في حينه يا لاظ، ولكن يمكنك أن تعرف الآن على الأقل أنها فرصة للتخلص من هؤلاء الجنود غير النظاميين، وإبعادهم وتوفير الوقت لتأسيس قوة نظامية جديدة.

– ولكن يا أفندينا ستحتاج هذه الحرب لكثير من الأموال، ولقد فشل الباب العالي في جميع محاولاته لاحتواء هذه الحركة المسماة بالوهابية!

– هذا ما سيسعدني بالتأكيد يا لاظ، أن ننجح في ما فشلت فيه الدولة، أما عن الأموال، فقد حان الوقت لمصادرة جميع الأراضي الزراعية لتصبح جميعها ملكًا لنا نحن فقط.

– ألن تحدث ذلك أي اضطرابات يا أفندينا؟

وضحك الباشا كعادته من أسئلة لاظ الساذجة والمحببة له في الوقت نفسه ويقول:

- من الذي سيقود هذه الاضطرابات يا لاظ؟ زعماء الشعب الذين تم حرق جميع أوراقهم؟ أم رءوس المماليك المعلقة على أبواب القاهرة؟

ويضيف الباشا:

- لقد حان الوقت أيضًا لحضور عائلتنا من قولة ليستقروا بمصر معنا.

- إنه خبر سعيد يا أفندينا..

- وسوف تكون يا لاظ أكثر سعادة عندما تعلم أننا سنزوجك كريمتنا نازلي هانم..

ويقع الخبر كالصاعقة على لاظ بك، ويرتبك ولا يدري ماذا يقول، ثم يتمالك نفسه ويهمس بالكاد:

- إنه شرف عظيم يا سيدي العزيز..

وهكذا أصبح عزيز مصر هو المالك الوحيد لجميع الأراضي، والتاجر الوحيد الذي يبيع محاصيلها، ونظرًا لسيطرة بريطانيا على البحر المتوسط سيطرة كاملة، فستكون هي الزبون الوحيد تقريبًا الذي يمكنه شراء القمح المصري، وعندما يعاتبه صديقه القنصل الفرنسي دروفيتي يقول له:

- إن الإنجليز يحتاجون للقمح ويشترونه منا، وإذا منعته عنهم فسيحصلون عليه بالقوة، وهو ما لا أتمنى حدوثه..

ويسافر طوسون باشا على رأس الجيش إلى الحجاز، ولكن بدون احتفال هذه المرة.

الباشا حارس الأماكن المقدسة

ولنترك الباشا في القلعة، ونتوجه إلى حارة الصناديقية حيث يجلس الشيخ الجبرتي في صحن داره مع ابنه خليل، يحاول أن يُلم بما يحدث ليدونه في كتابه الشهير، ويسأله ابنه خليل:

– ما طبيعة ما يحدث في الحجاز وتلك الاضطرابات التي أرسل الباشا جيشاً للقضاء عليها يا أبي؟ ومن الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذي يتحدثون عنه؟

– لقد أخبرني يا بني من عادوا من الحج، أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي قد وُلِد سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م في بلدة العيينة، الواقعة في شمال الحجاز، ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره، وأظهر نبوغًا وتميزًا؛ فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث ورحل في طلب العلم، وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد، بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله.

– إذن، فما المشكلة يا أبي؟ فأنا لا أجد حتى الآن فيما قلته ما يثير القتال أو العنف؟

- بدأت الاضطرابات يا بني، عندما استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود، الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد، وكان هذا التحالف على أُسُسٍ متينة، واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ، يدعو إلى إزالة المنكر، وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده، وظلت الدعوة مسالمة متأنية، تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه رأى أن اللين يُقابل بالشدة، وأن الصدق يُقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يُرد عليها بالمؤامرات..

- لهذا لجأ إلى العنف يا أبي؟

- أجل يا بني..

- ولكن لماذا لم يُرسل إلى الدولة رسائل توضح ما يحدث، ويشرح رأيه الفقهي فيه لتعينه على دعوته بشكل شرعي؟

- لا أعرف يا بني أفعل ذلك أم لا؟ ولكن المعروف أنه قرر بمعاونة الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية أن يدافع عن دعوته بالقوة، وحققت الدعوة نجاحًا كبيرًا، وبعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، واصلت الدعوة مسيرتها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلى الحجاز.

- فمتى سيطروا على مكة يا أبي؟

- في عام ١٨٠٣ م دخل السعوديون مكة، وبعدها بعامين ضم السعوديون المدينة المنورة، وقامت بالفعل الدولة السعودية التي تأسست على أسس سلفية، وبلغت الدولة في زمن سعود بن عبد العزيز منتهى القوة، وخضع لها معظم شبه الجزيرة العربية.

- فمن الذي تصدى لهذه الدعوة يا أبي؟

- قام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات على أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها، وليست هذه المقاومة من جهة واحدة، أو من طرف معين، بل من كل الجهات ومن كل الأطراف، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين، وأتت من سدنة القبور، وأتت من المستفيدين من صناديق النذور، وأتت من الذين يعيشون على الأطعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات، وأتت أيضًا من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها وفي العالم الإسلامي أجمع.

- ولكن لماذا منع الوهابيون الحج يا أبي؟

– كان الوهابيون يمنعون أي وفد من وفود الحجيج يأتي بالطبل والزمر والموسيقى يا بني، أما من يأتي للحج بأسلوب عادي وطبيعي، فلا يمنعونه من الحج، ولكن أُشيع أن الوهابيين قد منعوا الناس من الحج.

– لذلك يا أبي أرسل الخليفة العثماني جيوشًا للقضاء على السعوديين والدعوة الوهابية؟

– أجل يا بني، ولكن جميع محاولات الباب العالي قد فشلت في القضاء عليها، فطلب من أفندينا محمد علي احتواء هذه الحركة، وها هو الباشا قد أرسل جيشًا من مصر لمحاربتها.

وهكذا قامت الحرب بين محمد علي والوهابيين، ودارت معارك عديدة تخلص فيها محمد علي من معظم الجنود غير النظاميين، وسافر بنفسه في إحدى مراحل الحرب إلى الحجاز، تاركًا في مصر محمد بك لاظ نائبًا عنه، ولقد بدأ هذه الحرب طوسون باشا واستكملها بعد ذلك إبراهيم باشا، وقد سجل الجبرتي ما وصلته من أخبارها، ويبدو أنه كان متعاطفًا مع الوهابيين.

وانتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري، وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب، وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد علي وأكثرها ضحايا، وأعظمها نفقات، وقد تخللها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضي على الحملة المصرية، فإن الجيوش التي جردها محمد علي استُهْدِفت للخطر في مواطن عدة، وخاصة في هزيمة "الصفراء" الأولى

وحصار "الرس"، عندما استعصت على إبراهيم باشا وفي حصار الدرعية، وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها، ففي تلك المرات الأربع، كادت الحملة المصرية تقع في الأسر، لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام، ومن الأسباب التي أدت إلى اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود الذي تولى القيادة بعد والده في أثناء الحرب، والأموال التي بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد علي واشتروا بها ذمم البدو، فإن القبائل التي انحازت إلى جانب الجيش المصري قد عاونته معاونة كبيرة. وكان من شروط استسلام الدرعية عاصمة السعوديين أن يتم المحافظة عليها وتأمينها، ولم يفِ محمد علي بعهود ابنه إبراهيم في شروط الصلح؛ فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها، وتخريب منازلها وأن يرسل إلى القاهرة إخوة عبد الله بن سعود الذي تم قتله بالأستانة، فنزل إبراهيم على أمر أبيه؛ وأرسل إخوة ابن سعود، وخرب الدرعية وأحرقها، وقد استمرت الحرب الوهابية من سنة ١٨١١م إلى سنة ١٨١٩م. وعاد إبراهيم باشا من حروبه بالحجاز منتصرًا، وأقدم عليه جميع الناس من كبار رجال الدولة ليهنئوه بالعودة والنصر.

ويقول الجبرتي عن ذلك:

"إن إبراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعاظمًا في نفسه جدًا، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه، حتى إن المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه، وهو جالس في ديوانه، لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام، فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة، فلم يجبهم ولا بالإشارة."

أما الباشا، فكان في تلك الفترة يحاول جاهدًا تنفيذ خطة تصنيع كاملة للسفن والمدافع والمعدات، ويقوم بإصلاحات كبيرة في مصر لتوفير كثيرٍ من الأموال، كما استغل حركة السفن التي تقوم بتصدير القمح في استيراد جميع مستلزمات التصنيع، وأستجلب له صديقه دروفيتي من فرنسا كل من يحتاج إليهم من خبراء في جميع المجالات. وكي يتمكن الباشا من تنفيذ مشاريعه الكبرى بالعاصمة كالمصانع والمدارس وما إلى ذلك من أسس الحضارة والنهضة، قرر إبعاد الجنود عن القاهرة وتوزيعهم في مختلف أنحاء الوجه البحري، حتى لا يكون احتشادهم في القاهرة خطرًا على النظام، ولكي يلقي في روعهم أنه لا يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم، أمر أن يصحبهم في معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه ورؤساء جنده، فتولى طوسون باشا قيادة بعض تلك الفرق، واتخذ معسكره في برنبال الواقعة بالبر الشرقي للنيل تجاه رشيد، والتمس بها الراحة من عناء المعارك التي خاضها في الحجاز، وأخذ معه الموسيقيين والراقصين والراقصات والمغنيات ومجالس اللهو.

الباشا يبكي

وبعد مرور كل هذه الأحداث المتلاحقة والمثيرة، كان لابد للباشا من آن لآخر أن يجلس مع لاظ بك تلك الجلسة التي تعيد له توازنه النفسي، وتعدل من مزاجه فيحتسيان معًا القهوة، ويتبادلان أطراف الحديث الماتع، وعلى الرغم من وجود جميع أفراد أسرة الباشا في مصر، إلا أن لاظ كان له وضع خاص لم يتمكن أحد من أن يحل محله لدى الباشا، وكان الباشا قد بنى قصرًا في شبرا، وعديد من المنشآت الأخرى، فكان لقاء لاظ بالباشا يتم أحيانًا في القلعة، وأحيانًا في شبرا أو في أيَّة استراحة من استراحات الباشا بالجيزة أو غيرها.

وبينما كان لاظ في بيته يستعد للتوجه للباشا، إذ يصله خبر مفجع، وهو وفاة طوسون ابن الباشا والمحبب إلى قلبه، فأسرع وتوجه إلى الباشا، فوجده قد عرف الخبر، ولم يتمالك نفسه من البكاء، وكانت هذه المرة الأولى في حياة لاظ التي يرى فيها محمد علي يبكي، فقد كان يراه دائمًا رمزًا للقوة والدهاء، حتى إنه لم يكن يتخيل أن هذا الجبل الشامخ له مشاعر أو أحاسيس كباقي البشر، يا لها من فاجعة أظهرت الأب الإنسان الذي بداخله. وقد سجل الجبرتي بالطبع ترجمة طوسون باشا كما تعوّد أن يسجل تراجم الوفيات في نهاية أحداث كل سنة في كتابه، فقال عنه: "ومات طوسون باشا، وهو المقر

الكريم المخدوم أحمد باشا، الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد علي باشا، مالك الأقاليم المصرية والأقطار الحجازية والثغور وما أضيف إليها، سافر المترجَم إلى البلاد الحجازية، وحارب الوهابية فكانت النصرة له، ولما عاد إلى مصر أراد أن يسافر إلى جهة رشيد، فأخذ العساكر وسافر إلى جهة الحماد، وجعل عرضي خيامه هناك، وصار يتنقل من العرضي إلى رشيد ثم إلى برنبال، وأبي منضور والعزب، وكان صحبته من مصر أرباب الآلات المطربة المغنين، وهم إبراهيم الوراق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقائهم، ثم ذهب ببعض خواصه إلى رشيد، ومعه الجماعة المذكورون، فأقام أيامًا وحضر إليه من جهة الروم جوار وغلمان قاصون، فانتقل بهم إلى قصر برنبال، ففي ليلة حلوله بها، نزل به ما نزل من المقدور؛ فتمرض بالطاعون، وتململ به نحو العشر ساعات، وانقضى نحبه، وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف، الموافق ٨ أكتوبر ١٨١٦م، وحضر خليل أفندي قوللي حاكم رشيد، وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه، فغسلوه وكفنوه ووضعوه في صندوق، ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره. وكان والده بالجيزة، فلم يتجاسروا على إخباره، فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك، فلما علم بوصوله ليلًا استنكر حضوره في ذلك الوقت، فأخبره عنه أنه ورد إلى شبرا متوعكًا فركب في الحين القنجة وانحدر إلى شبرا، وطلع إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول: أين هو؟

فلم يتجاسر أحد أن يخبره بموته، وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلى بولاق، ورسوا به عند الترسخانة، وأقبل كتخدا بيك على الباشا فرآه يبكي، فانزعج انزعاجًا شديدًا، ونزل السفينة فأتى بولاق آخر الليل، وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان، فركبوا بأجمعهم إلى بولاق وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي، ثم نصبوا ساترًا على السفينة، وأخرجوا الناروس ونصبوا عودًا عند رأسه، وضعوا عليه تاج الوزارة الذي اسمه الطلخان، وانجروا بالجنازة من غير ترتيب، وجميعهم مشاة أمامه وخلفه، وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد المكاتب والأحزاب شيء، من ساحل بولاق على طريق المدابغ وباب الخرق على الدرب الأحمر على التبانة إلى الرميلة، فصلوا عليه بمصلى المؤمنين، وذهبوا به إلى المدفن الذي أعده الباشا لنفسه ولموتاه كل هذه المسافة، ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي.

ومع الجنازة أربعة حمير تحمل القروش وربعيات الذهب ودراهم أنصاف عددية، ينثرون منها على الأرض، وساقوا أمام الجنازة ستة رءوس من الجواميس الكبار، وأخرجوا لإسقاط صلاته خمسة وأربعين كيسًا تناولها فقراء الأزهر.

ولما وصلوا إلى المدفن هدموا التربة، وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجه منه بسبب انتفاخه وتهريه، حتى إنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخور والرائحة غالبة على ذلك، وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل

الأفراح ودق الطبول، ونوبة الباشا وإسماعيل باشا وطاهر باشا، وأقاموا عليه العزاء عند القبر مدة أربعين يومًا، ومات وهو مقبل الشبيبة لم يبلغ العشرين، وكان أبيض جسيمًا بطلًا شجاعًا جوادًا، له ميل لأولاد العرب، منقادًا لملة الإسلام، وكان يعترض على أبيه في أفعاله، وتخافه العسكر وتهابه، رحمه الله تعالى.

وقرر الباشا أن يبني سبيلًا كصدقة جارية على روح ابنه، فجاء هذا السبيل قمة في الروعة، وهو يقع في الغورية بالقرب من باب زويلة وعلى رأس حارة الروم، ولقد مضى وقت طويل ليتجاوز الباشا تلك الصدمة ويعود إلى حالته الطبيعية، وكان أكثر ما يخفف عنه هو رؤية حفيده اليتيم عباس ابن طوسون الذي لم ينعم بمصاحبة والده. ولقد كان الباشا على الرغم من شخصيته القوية أبًا حريصًا على أبنائه، عطوفًا بهم، كما أنه كان شديد الاحترام لزوجته الأولى المثالية أمينة هانم، معتنيًا بشئونها، وكان من أشهر أبنائه إبراهيم، وهو أكثرهم شبهًا به وطوسون وإسماعيل وسعيد وحسين وعبد الحليم ومحمد علي الصغير، أما أشهر بناته فنازلي هانم زوجة محمد بك لاظ، وتوحيدة هانم زوجة محرم بك الضابط البحري الشهير الذي أصبح حاكم الإسكندرية، وزينب هانم الرابعة، وكان من أصهاره أيضًا محمد بك الدفتردار، ولكنه لم يصل إلى مكانة محمد بك لاظ بطل قصتنا لدى محمد علي باشا، فقد كان أقرب أزواج بناته إليه.

قصر من القش

ويلتقي الباشا بلاظ بك كعادتهما القديمة بعد طول توقف لأسباب عديدة، ويستعيد الباشا همته ونشاطه الذي افتقده لاظ منذ فترة ليست بالقصيرة، ويشربان القهوة ويستمع إلى أفكار الباشا الجديدة دائمًا بالنسبة له، وكأن لقاء الباشا به في كل مرة يأذن بميلاد فكرة مشروع جديد، وكان لاظ في شدة الشوق لسماع ما سيقوله الباشا خاصةً هذه المرة. ويقول الباشا:

– لابد لنا يا لاظ من ضم السودان لمصر، فهما كيان واحد لا يقبل التجزئة، ولابد لدولتنا يومًا أن تمتد من منبع النيل إلى مصبه.

– صدقت يا أفندينا، ولقد سمعت الناس تتناقل الأخبار عن وجود كثيرٍ من مناجم الذهب والماس في أصقاع السودان، وخاصة في منطقة هناك تسمى سنار كما يقولون، وما أحوجنا لهذه الأموال!

– ليس هذا فقط سبب تفكيرنا في السودان يا لاظ بك، ولكن هناك عديدٌ من الأسباب.

– مثل ماذا يا أفندينا؟

وأخذ محمد علي يوضح الأسباب التي تجعله يريد فتح السودان، ومنها رغبته في تجنيد السودانيين في الجيش المصري، لِمَا اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، ثم رغبته في التخلص

من الفرق الباقية من عسكر الأرناؤوط، وغيرهم من الجنود غير النظامية ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب، وعادوا إلى مصر وظلوا على ما جُبِلوا عليه من النزوع للعصيان والتمرد والإخلال بالنظام، فرأى محمد علي تخلصًا منهم أن يجردهم على السودان، وخاصة لأنه شرع وقتئذ في تأسيس الجيش المصري النظامي، ومن أغراضه أيضًا القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين في إقليم دُنقلة، وهم على ما بلغوه من الضعف كانوا مصدر قلق لمحمد علي، فاعتزم القضاء عليهم لكي لا يستردوا قوتهم يومًا ما ويزحفوا على مصر، وكان يرمي كذلك إلى توسيع معاملاته التجارية مستغلًا موانئ السودان.

وقبل أن يأمر الباشا بالزحف إلى السودان، ذهب بنفسه إلى حدود مصر العليا في سبتمبر ١٨١٩ يصحبه حسن باشا قائد الجنود الأرناؤوط، ومحمد بك لاظ أوغلي بالطبع، ووصل إلى ما وراء شلال أسوان ليرتاد تلك الجهات، ويرتب مواقع جنوده ويرسم خطط الزحف، ثم عاد إلى العاصمة ليعد معدات الحملة. ويقرر الباشا أن يكون ابنه الثالث إسماعيل هو قائد هذه الحملة، ويتحرك الجيش بالفعل بقيادته، إذ ينحدر المشاة بالسفن في النيل والفرسان برًا، كما أنفذ الباشا جيشًا آخر بقيادة صهره الثاني محمد بك الدفتردار لفتح كردفان، فكان مجموع الجيشين حوالي عشرة آلاف مقاتل، وصحب الحملة ثلاثة من العلماء كانت مهمتهم دعوة السودانيين إلى الدخول في الطاعة، والاعتراف بسلطة الحكومة المصرية حقنًا للدماء، كما

صاحب الحملة أيضًا العالم الفرنسي المسيو فردريك كايو، بقصد الاكتشاف والبحث عن مناجم الذهب. ويتابع الباشا مع لاظ بك أخبار الحملة على السودان في اهتمام بالغ، ويلاحظ لاظ قلق الباشا الذي نادرًا ما ينتابه فيقول:

– إن هذه الحملة يا أفندينا، ستكون أيسر كثيرًا من حملة الحجاز؛ فلا يمكن المقارنة بين ما سيلاقيه جيشنا من مقاومة هناك، وبين ما لاقاه في الحرب الوهابية.

– إن ما يشغلني يا لاظ ليس المقاومة فقط، بل الأمراض والأوبئة المنتشرة هناك والتي قد تؤثر على زحف الجيش.

وكما توقع الباشا، لقد كان أخطر ما واجه الجيش هو انتشار الأمراض بين الجنود، حتى إن إبراهيم باشا الذي سافر لنجدة أخيه في أحد مراحل القتال، أُصيب بالدوسنتاريا وعاد إلى مصر ليتعافى، بعد أن مَدَّ أخاه بما يحتاجه في تلك المرحلة، وكان قلة عدد الأطباء المصاحبين للحملة، وقلة المستلزمات الطبية من أكثر الأشياء التي أثرت على عدم السيطرة على الأمراض بشكل مناسب، وقد كان هذا من أهم الأسباب التي جعلت الباشا يفكر جديًّا في النهوض بالطب في مصر من أجل جيوشه في المقام الأول. واستطاع إسماعيل تحقيق عديد من الفتوحات والانتصارات في السودان، وأسس حكومة لإدارة الأمور هناك. وبينما كان في سنار يدبر أمر

الحكومة التي أسسها، بعد أن أرسل أفواجًا من الأسرى السودانيين يصحبهم رهط من الجنود إلى أسوان؛ لتجنيدهم في الجيش المصري النظامي الذي كان محمد علي جادًا في تأسيسه، واستعد هو أيضًا للعودة إلى مصر، وخلال ذلك جاءه عابدين بك رئيس أركان جيشه، وهو في حالة قلق وقال:

– عفوا يا سيدي، فهناك أخبار وصلت إليَّ للتو أن أهالي حلفاية وشندي وما حولهما ثاروا في وجه رجالنا.

– هل عرفت سبب ذلك؟

– أجل يا سيدي، سلوكيات جنودنا الأرناؤوط هي السبب في هياج الأهالي..

– فماذا فعل أهالي حلفاية وشندي يا عابدين بك؟

– مع الأسف يا سيدي، لقد هجموا على قوافل الأرقاء السودانيين المتجهة إلى مصر وانتزعوهم من أيدي الجنود الموكلين بهم، ورجعوا بهم إلى شندي.

فقام إسماعيل من فوره وتوجه بالجيش إلى شندي، وكان الملك نمر ملك شندي هو المدبر لهذه الثورة، وبمجرد وصول إسماعيل أمر بإحضار الملك نمر أمامه، فلما مَثُل بين يديه أخذ يقرعه ويُسرف في تأنيبه، ثم تمادى فلطمه على وجهه بما كان في يديه، فلم يُجِب الملك على هذه الإهانة البالغة،

ولكنه أسرّها في نفسه وعزم أن يغسلها بانتقام ذريع. أما إسماعيل باشا فقد عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفيها في خمسة أيام وألف من الرقيق، وأظهر الملك نمر الإذعان وقَبِل أن يتحمل الغرامة، ثم دعا إسماعيل باشا وبطانته إلى وليمة في قصره بشندي، وكان من القش، فأجابوا الدعوة وذهبوا إلى القصر واتخذوا مجلسهم فيه، ورحب بهم الملك ترحيبًا عظيمًا، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر بحجة العلف لخيل الباشا، ولم يُدرك الضيوف أن ثمة مؤامرة رهيبة تُدَبّر لهم، فلما فرغوا من طعامهم أخذوا يتأهبون لمغادرة المكان، فإذا بأعوان الملك يشعلون النار في أكوام الحطب والقش المحيطة بالقصر، فاحترق القصر وتحول إلى شعلة من الجحيم، ومات إسماعيل باشا وكل من كان معه بالقصر. ولما وصل نبأ هذه الكارثة لمحمد بك الدفتردار في كردفان، توجه إلى شندي ليثأر لصهره، ونكّل بأهلها أشد التنكيل، وقتل الآلاف منهم، وسبى من النساء والصبيان آلاف أخرى أرسلها إلى مصر، وتعقب الملك نمر لكنه لم يدركه لفراره إلى حدود الحبشة، فلما بلغ الخبر محمد علي باشا حزن حزنًا شديدًا، على أنه تلقى المصيبة بالجلد والصبر واعتزم المضي في سبيله.

الحاجة للأزهر

ويجلس الباشا مع لاظ مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان مهمومًا حزينًا، فقد فقد اثنين من أبنائه خلال رحلته لتحقيق أهدافه، ولقد بذل لاظ مجهودًا كبيرًا حتى يُعيد للباشا حيويته التي اعتاد أن يراه عليها، وكان الكلام عن تأسيس الجيش هو أكثر ما يُريح الباشا، فدار الحديث حول الجيش، فقد كان اهتمام الباشا بالجيش هو السبب الرئيس لنهضة مصر في عديد من المجالات، فالجيش هو وسيلته لتشييد ملكه وتأسيس دولته له ولأولاده من بعده، وليحقق به الاستقلال والمجد، وليس في منشآت محمد علي ما نال عنايته مثل الجيش المصري.

قال الباشا:

- لابد يا لاظ بك أن يكون تأسيس الجيش وما يحتاجه هو الأساس، بحيث تكون المنشآت الأخرى متفرعة عنه، والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش، فهو الأصل وهي التبع.

- وما أكثر هذه المنشآت أهمية حاليًا يا أفندينا؟

- نريد إنشاء مدرسة للطب لتخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش، وكذلك دور للصناعة الحربية ومصانع للغزل والنسيج لتوفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة.

- إن كل هذا يا أفندينا يحتاج إلى وجود مدرسين وأطباء ومهندسين وغيرها من المهن.

- أجل يا لاظ، فلابد أن يكون هناك تعليمًا عاليًا، وسيساعدني المسيو دروفتي ليتم استحضار خبراء فرنسيين، وأن تسافر بعثات من مصر إلى فرنسا.

- ولكن من سيسافر يا أفندينا إلى فرنسا وحالة الفلاحين كما ترى؟

- الأزهر يا لاظ بك، هو الجهة الوحيدة في مصر التي يمكنها إمدادنا بأشخاص يصلحون لتكوين هذه الطبقة الجديدة من المثقفين والمتعلمين تعليمًا عاليًا، قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية، كما أن طلبة الأزهر قد حازوا من الثقافة قسطًا يؤهلهم للبعثات إلى فرنسا.

وهكذا انطلق محمد علي باشا في مشروعه الكبير، ويعاونه ويتابعه لاظ بك بانبهاره المعهود، وبالطبع كان جمع الأموال بجميع الوسائل هو أهم ما يشغل الباشا لتحقيق أهدافه.

لم يرحم شيخوخته

ولنترك أبطال قصتنا يسابقون الزمن لتأسيس جيش قوي، وكل ما يحتاج إليه من مستلزمات في جميع المجالات، ولنذهب إلى حارة الصناديقية ونستمع لحديث الجبرتي لابنه خليل، وقد كان الباشا هو موضوع الحديث، حيث سأل خليل والده عن الباشا قائلًا:

- ماذا ستكتب يا أبي في كتابك عن أفندينا الباشا وما يفعله؟

- اعلم يا بني، أنني ما شرعت في كتابة هذا الكتاب لخدمة ذي جاه كبير، ولم أقصد من كتابته طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني والحمد لله.

- وفقك الله يا أبي لما فيه الصدق والخير والأمانة، فماذا سجلت عن ولي الأمر؟

- إن ولي الأمر يا بني، قد اعتدى على مساتير الناس، وأغلق البيوت المفتوحة، لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع، والتطلع إلى ما في أيدي الناس وأرزاقهم، ولم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب، وقطع أرزاق المسترزقين، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب.

- ألا يوجد بالقرب منه من ينصحه يا أبي؟

- لا يتقرب إليه يا بني من يريد قربه إلا بمساعدته على مراده ومقاصده، ومن كان خلاف ذلك، فلا حظ له معه مطلقًا، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب –ولو على سبيل التشفع- حقد عليه، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبدًا، وبطانته يا بني يوافقونه ويساعدونه في مشروعاته، إما رهبة وخوفًا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم، وإما رغبةً وطمعًا وتوصلًا للرياسة والسيادة، وهو الأكثر، وخصوصًا أعداء الملة الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسه، وهم شركاؤه في أنواع المتاجرة وهم أصحاب الرأي والمشورة.

- فماذا عن أعماله النافعة يا أبي؟

- إن له أعمال يا بني من همم الملوك، كحفر ترعة المحمودية، وتعمير الإسكندرية، وإصلاح بوغاز رشيد وغير ذلك من الأعمال النافعة، وهو كثير الحركة والنشاط ولا يقر له قرار، وله مندوحة ليست لغيره من ملوك هذا الزمان، ولو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والثقافة والتدبير والمطاولة، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه.

لم يكن الجبرتي مؤرخًا حكوميًّا كما يقول الأستاذ جمال بدوي، يكتب ما يرضي الحاكم، ولكنه كان مؤرخًا شعبيًّا من الطراز الأول، يسجل ما يراه في أمانة ودقة، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفًا من سخطها.

ومثل هذا المسلك الأخلاقي، لم يكن مما يُعجب الحكام، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له، أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات، ويُزيّفوا الحقائق فيجعلوا من خزيه مجدًا، ومن سوءاته عزًّا.

لقد عاصر الجبرتي صعود نجم محمد علي خطوة بخطوة، رآه جنديًّا مغمورًا يحضر مجالس العلماء، ويتملق مشايخ الازهر ويصانعهم، ويتظاهر بالتقوى والورع، ثم يتقرب من زعيم شعب القاهرة الطيب العفيف عمر مكرم، ويُقسم أمامه بأغلظ الأيمان أن يكون العادل الشفوق إذا آل إليه أمر مصر، ثم رآه وهو يتلقى الأمانة من أربابها، ويتربع على عرش البلاد بإرادة أبنائها ومشايخها، ثم رآه مرة ثالثة وهو يتنكر لأيمانه وعهوده ومواثيقه، ويتحول من حمل وديع إلى نمر هصور يبطش بكل الذين أعانوه.

لقد ساء الجبرتي أن يرى محمد علي، وقد تملكته نزعة الشره إلى الأموال، فيصادرها دون سند من الشريعة، ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل، وساء الجبرتي أيضًا أن يراه ينهج نهج كل جبار طاغية في كره النقد، وإبعاد النصحاء الصادقين، وتقريب المتزلفين المنافقين، وإسناد الوظائف الرئيسة إلى الغرباء الذين تكالبوا على فتات مائدته.

وعندما وصل إلى علم محمد علي باشا ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس، لم يرحم شيخوخته، وأوعز إلى أعوانه فاغتالوا ابنه خليل في أثناء سيره في شارع شبرا، وارتاع الرجل وهو يتلقى جثمان ابنه الصريع، وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتلأت نفسه همًّا وكمدًا، وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه، حتى ابيضت عيناه من الحزن، وكُفَّ بصره، كما كفت يده عن الكتابة إلى أن وافاه الأجل، فغادر الدنيا حزينًا مكلومًا.

الفلاح والباشا

تحدث الباشا كثيرًا حول تجنيد الفلاحين المصريين في الجيش المصري، بعد فشل تجربة تجنيد السودانيين بسبب وفاة معظمهم من الأمراض، ربما لتغيير الجو الذي اعتادوا عليه، واختلاف أحوال المعيشة، وأعرب لاظ عن مخاوفه من هذه الخطوة قائلًا للباشا:

- أخشى ما أخشاه يا أفندينا أن يحمل المصري السلاح فيوجهه نحونا.

- لا تقلق يا لاظ، فلن يكون هناك ضباط من المصريين، فهم مجرد أنفار فقط يتحركون بأوامر قادتهم، وسوف يقوم سليمان باشا الفرنسي بإعداد الضباط، وقد بدأ العمل بالفعل بعد أن قدمت إليه خمسمائة من خاصة مماليكي، وطلبت من بعض رجالي أن يحذوا حذوي، ويقدموا من عندهم من المماليك، فاجتمع لديه ألف من هؤلاء وأولئك، وسيدربهم لمدة ثلاث سنوات على فنون الحرب وأساليبها الحديثة، ليصبحوا نواة الجيش النظامي الجديد.

كان الباشا يريد إنشاء دولة حديثة قوية، ووضع خطة طموحة لإقامة العديد من المشروعات الكبرى، مثل شق الترع والمصارف وبناء السدود والقناطر، ولكنه لم يبذل أدنى اهتمام للإنسان المصري الذي يقوم بتنفيذ هذه المشروعات، فكان يستخدم الكرباج في إجبار المصريين على العمل في ظروف بالغة القسوة، كان الآلاف يهلكون جوعًا وضنكًا وإعياء،

فما قيمة المشروعات إذا أهدرت آدمية المواطن. ولقد كان الأسلوب الذي تم اتباعه في تجنيد المصريين يتسم بالوحشية، فقد كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالإعصار المدمر، فتأسر كل من يقع في يديها من رجال وشيوخ ونساء وأطفال، ثم تسوقهم جميعًا في حبال غليظة إلى مراكز التجنيد قسرًا. وكان محمد علي في حاجة إلى المال، فلم يترك سبيلًا من سبل التحايل إلا سلكه، حتى جعل من نفسه شريكًا لكل صاحب حرفة مهما كانت دناءتها، وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم في غاية الضيق والفاقة.

وكم كانت خيبة أمل المصريين عنيفة وهم يرون أحلامهم في العدل تتبدد! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين، يسلك مسلكهم نفسه في البطش، بل يفوقهم في سعة الحيلة والدهاء والخبث. وشيئًا فشيئًا، أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر، بدءًا من رقاب البشر وانتهاء بالدراهم الشحيحة التي تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل، واكتشف الفلاحون أنهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم، وأن نتاج كدهم وتعبهم هو حق مسلوب لحساب الباشا، فهربوا وتركوا الأرض وهاجروا إلى المدن ليعملوا في المهن الحقيرة، فلما تعقبهم كرباج الحكومة زحفوا إلى الشام في هجرة جماعية، كانت سببًا في حملة عسكرية شنها الباشا على الشام لتعود بالفلاحين الهاربين.

اللعب مع الكبار

وبمرور الوقت، استطاع الباشا بعزيمة فولاذية وبمساعدة الخبراء الفرنسيين، وبتسخير طاقات المصريين تحقيق الجزء الأكبر من مشروعه الكبير، وأصبح يمتلك جيشًا نظاميًا قويًا واقتصادًا هائلًا، وحركة تجارة دولية ومصانع حربية وترسانة وأسطول قوي، وشبكة ترع ومصارف وسدود لتنظيم الري، ورقعة زراعية لم تشهدها البلاد من قبل، كما قام بتشييد عديدٍ من المنشآت الرائعة والقصور، وحان الوقت للعب دولته مع الكبار كدولة عظمى تستحق أن تحتل مكانها الذي يليق بها، وكنِدٍّ للدولة العثمانية نفسها.

وتبدأ قصة اللعب مع الكبار عندما تجاوز جيش الباشا ميادين القتال التقليدية القريبة كالسودان وجزيرة العرب، وأصبح يقاتل في أوروبا نفسها، وقد حدث ذلك عندما طلب السلطان العثماني من الباشا توجيه جيشه وأسطوله للقضاء على الثورة في اليونان، التي كانت في ذلك الوقت إحدى ولايات الدولة العثمانية. واستطاع إبراهيم باشا أن يثبت جدارته في القيادة، كما أثبت الجيش المصري كفاءة عالية في القتال في البر والبحر، وخاض عديدًا من المعارك الناجحة في كريت والمورة، مما لفت انتباه الغرب لتنامي قوة محمد علي باشا، ولكنهم كانوا يقفون مع الثورة اليونانية ضد الدولة العثمانية؛ فكان لهم رأي آخر.

ولم تكن حروب محمد علي سواء في الجزيرة العربية أو في السودان في نظر أوروبا إلا أعمالًا محلية نوعًا ما، ولم تهدد أعماله في لحظة من اللحظات المصالح الأوروبية، أو تثير مشكلة حقيقية للقوى العظمى بخلاف الحرب في اليونان، إذ ستكون مثقلة بالانعكاسات بالنسبة لأوروبا وللباب العالي. وكان الباشا في تلك الفترة مقيما بقصر رأس التين الذي كان قد شيده في الإسكندرية، وكانت حاشيته وكبار رجال دولته قد انتقلت إلى الإسكندرية، ليتواجدوا بالقرب منه لتنفيذ أوامره وتدبير أمور الدولة من هناك، وكان الباشا يتابع مع كبار القادة سير المعارك الحربية والبحرية التي يقودها ابنه الأكبر إبراهيم باشا، ومعه صهره محرم بك قائد الأسطول المصري، بينما كان يقود الأسطول العثماني القائد البحري العثماني طاهر باشا، وقد كوَّنا معًا أسطولًا مشتركًا، بينما كانت القيادة العليا لجميع القوات البرية والبحرية لإبراهيم باشا.

ويذهب دروفتي صديق الباشا مساءً إلى قصر رأس التين، ويختلي به ساعة ثم يغادر القصر، ولكنه يترك الباشا في حالة غير التي كان عليها قبل اللقاء، ولأول مرة يشعر الباشا بالتوتر والقلق، وكان لاظ بك أول شخص فكر فيه الباشا وهو في هذه الحالة، فأرسل في طلبه، ويحضر لاظ، ويشاهد الباشا لأول مرة وعلى وجهه علامات القلق، فلقد رأى من قبل علامات الحزن والبكاء، ولكنه لم يلاحظ قلق الباشا من قبل، لقد كان قلقًا

مصحوبًا بالغضب والحيرة وكثيرٍ من المشاعر المتضاربة اجتمعت كلها على وجه الباشا، ويعلو صوت الباشا في عصبية قائلًا:

- أين أنت يا لاظ، أين أنت؟

- تحت أمرك يا أفندينا، ماذا حدث؟ حفظكم الله من كل سوء!

- إنهم يهددوننا يا لاظ، ويطلبون منا الوقوف على الحياد في حرب الباب العالي ضد الثورة اليونانية!

- عفوًا يا سيدي، ولكن من هم الذين تجرأوا على ذلك؟

- كلهم يا لاظ، الفرنسيون والإنجليز، بل والروس أيضًا، وجميع الدول الأوروبية، كلهم يا لاظ يقفون مع اليونان، وهم الذين كانوا يتقاتلون بالأمس أصبحوا أصدقاء اليوم!

- وما الذي يمكنهم فعله يا أفندينا؟

- لقد أخبرني دروفتي أنهم سيقاتلون العثمانيين، وسيقاتلوننا معهم إن ارتبطنا بهم برًّا وبحرًا، ونصحنا بالابتعاد عنهم وسحب قواتنا والوقوف على الحياد!

- لن يتمكنوا من هزيمتنا يا أفندينا..

- لا داعي للمبالغة يا لاظ، فهؤلاء هم الذين درَّبوا قواتنا على القتال برًّا وبحرًا، وساعدونا في بناء جيشنا وأسطولنا، ويعرفون عنا أكثر مما نعرفه

نحن عن قوتنا، وقد كنت أظن أنه قد أصبحت تربطنا بهم علاقات قوية، ولكن يبدو أن المصالح تغلبت على كل شيء!

لم يعرف لاظ ماذا يقول، فهذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها لهذا الموقف مع الباشا، وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يلتزم الصمت، ليتمكن الباشا من الحديث عن كل ما يهمه ويقلقه، فقد يكون ذلك تخفيفًا لما يعانيه من توتر وقلق، وبالفعل تحدث الباشا عن كل ما يمكن حدوثه وجميع الاحتمالات، وشيئًا فشيئًا بدأ يهدأ ويفكر بهدوء، ولكن بصوت مسموع، وهكذا نجحت فكرة لاظ في امتصاص غضب الباشا والتخفيف من حدة توتره. وبعد أن عرف الباشا من دروفيتي موقف فرنسا ورغبتهم في وقوفه على الحياد، يستقبل في اليوم التالي المبعوث الإنجليزي إذ يقول له:

– نريد معرفة حقيقة ماذا سيكون موقف الحكومة الإنجليزية تجاهنا، في حال تخلينا عن الباب العالي فشرع في الانتقام منا؟

– سوف أرسل يا صاحب السمو رسالة إلى حكومتي بما طلبتم معرفته، وسأوافي سموكم بالرد بمجرد وصوله.

ويقرر الباشا أيضًا من خلال دروفتي إرسال رسالة مشابهة للحكومة الفرنسية. ولكن لم يأته أي رد من الجانبين، فشعر بوجود مؤامرة، خاصةً أن كل ما حصل عليه مجرد مبادرات شخصية من كلا الجانبين، لا تعبر عن موقف الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، وكانت النصائح كلها تدعوه لعدم

التدخل والوقوف على الحياد، ولكن لا يعطيه أحد أي ضمانات. وهكذا تم التلاعب بالباشا من القوى العظمى، فهو لا يدري ماذا سيفعل، وظل الوضع هكذا والمفاوضات بين الدول تتم دون علم الباشا، ولا يرد أحد على رسائله إلى أن وقعت الكارثة.

هذا ليس من الإنصاف

كان يتبقى لإبراهيم باشا خطوة واحدة فقط ويسحق الثورة اليونانية ويقضي عليها تمامًا، ولذلك أمدّه والده بالمدد الأخير الذي سيساعده على تنفيذ خطته، ويصبح عن جدارة قاهر الثورات في الدولة العثمانية بعد انتصاره على الثورة الوهابية، ولكن الانتصار هذه المرة سيكون له طعم مختلف، فهو في أوروبا الذي ذاع صيته بها كقائد قادم من الشرق لا تصمد أمامه الجيوش. وكان الثوار اليونانيون قد اجتمعوا يائسين محبطين في جزيرة هيدرا، ينتظرون وصول الموت في أيَّة لحظة. ولكن الدول الأوروبية ترفض أن ينجح إبراهيم باشا في مهمته، فيجتمع في لوندرة قادة بريطانيا وفرنسا وروسيا، ويتفقوا على تكوين تحالف لنجدة الثوار اليونانيين، ويعقدون معاهدة يسمونها معاهدة لوندرة، تقضي باستقلال اليونان مع احتفاظ الدولة العثمانية بسيادة رمزية فقط عليها، وأن ترسل كل واحدة من هذه الدول أسطولًا إلى بوغاز نافارين الذي اجتمع فيه الأسطولان المصري والعثماني انتظارًا لتنفيذ أوامر إبراهيم باشا. وكان الأسطول الإنجليزي أسبق الأساطيل المتحالفة إلى الحضور، وكان بقيادة الأميرال كودرنجتون الذي تقرر أن يقود جميع أساطيل التحالف، وبمجرد حضوره يتفق مع إبراهيم باشا على عقد هدنة، ليتم حل المشكلة بالتفاوض بين التحالف

والباب العالي، ولكن الثوار يهاجمون قوات إبراهيم باشا بعد ارتفاع روحهم المعنوية بوصول التحالف. ويلتقي إبراهيم باشا بالأميرال ريني قائد الأسطول الفرنسي ويقول له معترضًا:

– إنكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال، وفي الوقت نفسه تتركون الثوار يفعلون ما يشاءون، إن هذا ليس من الإنصاف في شيء.

– لا تقلق يا باشا، سنعمل على التزام الجانبين بالهدنة لحين انتهاء التفاوض.

والواقع أن خطة الحلفاء الحقيقية كانت ترمي إلى فرض الهدنة على الجانب المصري والعثماني فقط، وقد اتضح ذلك عندما تكررت هجمات الثوار على قوات إبراهيم، مما اضطرها للدفاع عن قواته، فثارت ثائرة الحلفاء واتهموه بنقض الهدنة. ويؤكد الرافعي أن إبراهيم كان يُقدِّر أساطيل الحلفاء ومبلغها من القوة، ويعلم أنها وإن كانت أقل عددًا من الأسطولين العثماني والمصري، إلا أنها أرقى نظامًا، وبوارجها أقوى سلاحًا، ومدافعها أشد فتكًا وأبعد مرمى، وقوادها وضباطها أكثر علمًا وكفاءة، فكان يرى الحكمة في تجنب الاصطدام بأساطيل الحلفاء، ووافق رأيه في هذا الصدد رأي والده، ولكن قادة الحلفاء بيَّتوا الشر للأسطول المصري والعثماني، واتفقوا فيما بينهم على تدميره، مهما كان مسلك إبراهيم باشا الذي طلب من الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا عدم التحرش بأساطيل الحلفاء.

وفي اليوم الموعود اقتربت أساطيل الحلفاء من بوغاز نافارين، وأرسل الأميرال ريني إلى الضباط الفرنسيين المتواجدين على السفن المصرية كخبراء ومستشارين لمحرم بك، وطلب منهم الانسحاب من الأسطول المصري، والانضمام إلى الأسطول الفرنسي، فاستأذنوا من محرم بك في المغادرة، فلم يسعه إلا الإذن لهم بما طلبوا، وكان يعتقد هو وطاهر باشا أن الأمور مستقرة وليس هناك أي احتمال للقتال.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول إشارة تصدر إليها، وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز، فأرسل الأميرال محرم بك رسولًا إلى البارجة آسيا التي تقل الأميرال كودرنجتون، وطلب منه أن يمنع سفن الحلفاء من الرسو في نافارين، فأجاب الأميرال الإنجليزي الرسول في لهجة جافة أنه لم يأتِ ليتلقى أمرًا، بل جاء ليملي أوامره، ثم تقدمت سفن الحلفاء طبقًا لما هو مخطط له على شكل نصف دائرة، واقتربت من السفن العثمانية والمصرية وجهًا لوجه، وصار بعضها على مرمى المسدس منها، وتم استفزاز السفن العثمانية والمصرية المحاصرة داخل البوغاز، ووقع القتال وانقلب المرفأ إلى بركان من الجحيم، فكان المشهد رهيبًا مروعًا، واستمر القتال حتى الخامسة مساءً وبلغ عدد القتلى من المصريين والعثمانيين ثلاثة آلاف، في حين لم يخسر الحلفاء سوى ١٤٠ شخصا.

وأخذ الحلفاء السفن المصرية والعثمانية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال، وقد تمثل الغدر في هذه المعركة البحرية في أبشع صورِهِ، إذ إنها وقعت دون أن يتم إعلان الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء، وقد فقدت مصر في هذه الواقعة أسطولها الذي قضى محمد علي السنين الطوال يبذل الجهود العظيمة، ويُنفق الأموال الجسيمة في إنشائه، وبعد هذه الكارثة يقرر محمد علي عدم الاستمرار في الحرب في اليونان، ويسحب قواته ويعقد معاهدة مع الحلفاء، وتبادل معهم الأسرى، بينما أصرت الدولة العثمانية على موقفها من معاداة الحلفاء، والغريب أن الباشا بعد تدمير أسطوله كان غضبه من الباب العالي، وليس ممن دمر الأسطول، لأنه اعتقد أن الباب العالي هو السبب فيما حدث، وقرر الباشا بعزيمة فولاذية إعادة بناء الأسطول من جديد. وقد قابل إبراهيم باشا ما تعاهد عليه والده بالسخط الشديد لَمَّا رأى جهود جيشه قد ضاعت، وكانت مصر قد جردت في حرب اليونان جيشًا ضخمًا وصل تعداده إلى اثنين وأربعين ألفًا خسرت منه ثلاثين ألفًا! واضطر إبراهيم باشا للإذعان، وأدرك أن ما حدث كان نتيجة اللعب مع الكبار، وأيقن أن مصر لم تصل إلى مستواهم بعد.

كيان مستقل

لقد أيقن محمد علي باشا أن الاستمرار في تنفيذ أوامر الباب العالي سيقضي على كل أحلامه، وستعوقه عن تنفيذ مخططاته، فقرر أن يستقل بمصر عن الدولة العثمانية، خاصةً أن الغرب قد تفاوض معه ككيان مستقل غير تابع للسلطان العثماني، فقال يومًا ما للاظ بك وهم يحتسيان القهوة والباشا يدخن:

- لابد لنا يا لاظ من ضم سوريا إلينا..

وقد وقع كلام الباشا على لاظ وقعًا شديدًا أصابه بالقلق، فما يقوله الباشا يعني تحدي الباب العالي، ولم يدرك لاظ المسكين أن الدولة العثمانية لم تعد تمثل للباشا أي وزن من أي نوع، بعد أن لاحظ مدى ضعفها خلال الحرب اليونانية، التي ثبت بالدليل القاطع أن جيشه أفضل تنظيمًا وأكفأ تدريبًا وأكثر انضباطًا من جيشها، فأصبحت تعتمد على الجيش المصري لحل مشكلاتها، كما أنها لم تعد قوة عظمى في المنطقة، وحان الوقت لاستبدالها بقوة أخرى أكثر شبابًا وتطورًا، تستطيع أن تتعامل مع باقي القوى في العالم، كما أن الباشا رأى سياسته تجاه دول أوروبا ستكون أنجح من سياسة الدولة العثمانية التي فشلت في سياستها الخارجية بقدر ما فشلت في حروبها، وقد قرر ألا يتورط معها في أيَّة حروب أخرى، وبالطبع كان لاظ لا يدرك كل ما

يفكر فيه الباشا، وبالتالي كان الباب العالي يمثل له المارد الأكبر الذي لا يمكن عصيانه، ولكن لاظ قرر مجاراة الباشا في الحديث كعادته في الكلام قائلًا:

– ستكون هذه فرصة جيدة يا أفندينا لإعادة الفلاحين الهاربين هناك، والذي وصل عددهم إلى ما يقرب من ستة آلاف، وقد بلغني أن عبد الله باشا والي صيدا، قد قال أنهم ليسوا عبيدا في مصر، ومن حقهم كرعايا للدولة العثمانية أن ينتقلوا إلى أي مكان فيها بحرية.

– إذن سنعيد الستة آلاف يا لاظ يزيدون واحدًا..

فأدرك لاظ أن الباشا يقصد عبد الله باشا نفسه، ثم قال للباشا في حذر شديد:

– ولكن عفوًا يا أفندينا، بماذا سنفسر سبب حربنا على الشام بالنسبة للباب العالي؟

– على أية حال يا لاظ، سنعلن أننا ذاهبون لنقاتل عبد الله باشا الذي يحكم صيدا بشكل شبه مستقل عن الدولة، فإذا كان يعتبر نفسه حاكمًا مستقلًّا، فأهلًا باستقلاله الذي سيجعلنا نقاتل ولاية مستقلة لا شأن لها بالدولة.

– إن هذا الباشا يطمع في حكم الشام جميعًا يا أفندينا!

- أعلم ذلك يا لاظ بك، والغريب أنه نسي فضلنا عليه عندما شفعنا له لدى السلطان، عندما قام بعزله!

- إن ولاية صيدا التي يحكمها من أهم ولايات الشام يا أفندينا، وتتبعها عديد من المدن ومن بينها مدينة عكا المحصنة نفسها!

- بالتأكيد يا لاظ بك، سوف يستقر في عكا في حالة زحفنا إليه..

وهكذا قرر الباشا زحف حملة ضخمة بقيادة ابنه إبراهيم باشا في صيف سنة ١٨٣١، ومعه الكولونيل سيف المعروف بسليمان باشا الفرنسي، ولكن تأخر زحفها بسبب وباء الكوليرا الذي أصاب البلاد، وأودى بحياة ١٥٠ ألفًا من الشعب المصري، وشمل أيضًا ما يقرب من خمسة آلاف وفاة داخل صفوف جيش إبراهيم باشا، وتم تحرك الحملة في أكتوبر ١٨٣١ إذ شمل التحرك جزءًا منها برًّا والباقي بحرًا. ويذكرنا تحرك هذه الحملة بما فعله نابليون عندما غادر مصر بحملة مشابهة لاحتلال سوريا، واحتل غزة ويافا وحيفا، وواصل زحفه حتى توقف أمام أسوار عكا، وفشل في اقتحامها منذ نيِّفٍ وثلاثين سنة، أما إبراهيم باشا، فقد نجح فيما أخفق فيه نابليون وجيشه الفرنسي؛ ففتح عكا بجيشه المصري. وقد كانت عكا على جانب عظيم من المنعة، فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها، ولم يقتنع الباب العالي بالطبع بالأسباب التي أعلنها الباشا لقتال عبد الله باشا، وأرسل إليه مبعوثًا خاصًّا ليطلب منه وقف الحملة، ولكنه

تحجج بحجج أخرى رفضها السلطان، وقام بعزله عن ولاية مصر. وأمر بحشد جيش كبير بقيادة عثمان باشا، ليوقف زحف إبراهيم باشا وينقذ عكا من الحصار، فترك إبراهيم باشا قوة مناسبة لاستمرار حصار عكا، وقام بملاقاة الجيش العثماني قبل أن يصل إليه، وتم الصدام بين الجيشين المصري والعثماني في عدة معارك، من بينها معركة سهل الزراعة، وفيها هاجم جنود عثمان باشا الجيش المصري وأحاطوا به من كل جانب، وخُيِّل إليهم أنه أصبح في قبضة يدهم، لكن إبراهيم باشا بمعاونة سليمان باشا الفرنسي رتب الجنود المصرية على هيئة صفوف منتظمة متراصة، ووضع وراءها المدافع حتى لا يراها المهاجمون، فانخدع عثمان باشا بهذه الحيلة، وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية التي ظلت ساكنة لا تتحرك حتى صار الأعداء على مسافة قريبة، فارتد المصريون وراء المدافع، فقامت بإطلاق نيرانها فحصدت المهاجمين مشاةً وفرسانًا، فوقعت بهم الخسائر الفادحة وانسحبوا وفروا، فتعقبهم المصريون إلى نهر العاصي إذ غرق كثيرٌ منهم.

وبعد أن تأكد إبراهيم باشا من تمام هزيمة الجيش العثماني، وعدم وجود قوات كافية متبقية مع عثمان باشا لإعادة الهجوم، عاد بقواته إلى عكا واستمر ضرب المدفعية لأسوار عكا بكثافة رهيبة، حتى أحدثت عدة ثغرات بالأسوار، فدخل منها الجيش ودار قتال عنيف وشرس قاده عبد الله باشا من الداخل، فلما شعر أهل عكا أنهم قد أُحيط بهم، طلبوا من عبد الله

باشا الاستسلام، وطلب الأمان من إبراهيم باشا، فاضطر عبد الله باشا بضغط من أعيان المدينة أن يستسلم.

وقد عامله إبراهيم باشا معاملة طيبة وأرسله معززًا مكرمًا إلى والده في مصر، وهكذا تم فتح عكا في ٢٧ مايو ١٨٣٢، بعد أن استمر حصارها ستة أشهر، فقدَ خلالها الجيش المصري أربعة آلاف وخمسمائة قتيلا.

ويقول الرافعي: "فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين، فإن عكا هي التي امتنعت على نابليون، وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبًا، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري، ومن الواجب تقديرًا للحقيقة أن ننوه أن نابليون قد حاصر عكا من البر فقط، وكان الأسطول الإنجليزي يدافع عنها من البحر، ويمنع وصول أي إمدادات لنابليون، بينما كان إبراهيم باشا يحاصرها برًّا وبحرًا"

وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر، فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات، وبعد أن نظم إبراهيم باشا قواته ومنحهم فترة للراحة، قام بالزحف على دمشق وفتحها، وصلى الجمعة في الجامع الأموي الشهير. وقد غضب السلطان العثماني غضبًا شديدًا لما حققه إبراهيم باشا من انتصارات، فقرر حشد جيش آخر بقيادة حسين باشا، ووعده بولاية مصر إذا تمكن من هزيمة إبراهيم، وبالفعل التقى الجيشان في معركة حمص، في يوليو ١٨٣٢ التي انتصر فيها الجيش المصري انتصارا ساحقا، ودخل مدينة حمص بعد أن قتل ألفين من الجيش العثماني، وأسر ألفين وخمسمائة،

بينما لم يخسر الجيش المصري سوى اثنين ومائة قتيل، ثم استمر زحف إبراهيم باشا إلى حماه، ثم حلب، ثم وقعت معركة بيلان التي انتصر فيها أيضًا الجيش المصري، وسيطر بعدها على أنطاكية واللاذقية، واستمر زحف إبراهيم بجيشه حتى عبر نهر جيحون وسيحون، واحتل طرسوس، وأخذ يوطِّد مركزه وينظم الولايات التي فتحها، كما أرسل بعض الكتائب لاحتلال عينتاب ومرعش وقيصرية، وأصبح الجيش المصري على مشارف الأناضول، وأراد إبراهيم أن ينتهز الفرصة الثمينة لاحتلال قونية قبل أن يتمكن الباب العالي من التقاط أنفاسه وتجميع قواته، ولكن والده لم يسمح له بذلك واكتفى بهذا القدر على الأقل حتى الآن.

نشوة الانتصار

ظل محمد علي باشا يتابع انتصارات ابنه في سوريا، وهو في قمة النشوة، وكان يحتفل مع لاظ بك كلما أتته أخبار الانتصار في معركة تلو الأخرى، فيشربان القهوة ويدخنان في سعادة. لقد أصبح الباشا حاكمًا لمصر والسودان والشام وجزيرة العرب، يا لها من إمبراطورية ناشئة حديثة تواجه إمبراطورية قديمة تحتضر! ولكن هل سيسمح الغرب بصعود مارد جديد في المنطقة؟! لقد بدأ القلق يساور فرنسا بالفعل على الرغم من أنها مرضعته، فها هو جيشه يقف على حدود الباب العالي. ويزوره المسيو ميمو الفرنسي، ويتحدث معه حديثًا ينم عن قلق فرنسا من اقتراب المواجهة بينه وبين الباب العالي، إذ يقول للباشا:

– أن يصير الباشا صاحب السمو سيدًا على سوريا، يتطلب منه أن يعرف كيف يتوقف عندها مستخدمًا نجاحاته بكل حكمة..

– ولماذا لا يضحي الباب العالي بجزء مقتطع من الإمبراطورية كسوريا بقوة الأحداث، لضمان ما تبقى من الإمبراطورية؟ لماذا يكون الباب العالي المعافى الوحيد من الرضوخ إلى أول بند من القوانين الإنسانية، بند الحاجة؟

– أفهم من ذلك يا صاحب السمو أن اعتراف الباب العالي بتبعية سوريا لكم هو سقف طموحاتكم؟

– إن سوريا هي ما كانت تنقص دولتنا، وقد حصلنا عليها بالقوة..

وبعد هذا اللقاء ظل محمد علي حائرًا، يترقب أية إشارة من الغرب لتريه الطريق التي عليه أن يسلكها، فهو لا يريد الاصطدام بهم مرة أخرى، أما إبراهيم فقد كان يتميز غيظًا وغضبًا في سفوح جبال طوروس، ويريد أن يطرق الحديد وهو ساخن، إذ إنه يريد أن يمضي قدمًا، ولو أن الأمر كان عائدًا إليه وحده، لكان الآن على ضفاف البوسفور.

وتبدأ مفاوضات غامضة بين الباب العالي والباشا، والتي لم تصل إلى أي شيء، ويتأكد الباشا أن الباب العالي يريد هدهدته بالأوهام، لكسب الوقت من أجل إعادة تنظيم قواته، كل هذا والغرب لم يعطه بعد الضوء الأخضر، ليبدأ تدمير الكيان العثماني الذي يمثل آخر دولة إسلامية عظمى في المنطقة، أما الباشا فصناعة غربية ويمكن التعامل معه بعد ذلك بسهولة، أما الذي لا يعرفه الباشا وقد لا يعرفه الباب العالي أيضًا، هو أن الغرب يعبث بهما جميعًا، والهدف هو مصالحه فقط والتي تتمثل في إنهاك وإضعاف كلتا القوتين، واستنزافهما في حروب يفقدون خلالها آلاف من القتلى من الجانبين، وبعد طول تردد، وفي النهاية، يفقد الباشا ثلاثة أشهر طويلة أخرى، إذ لم يرسل أمره إلى ابنه بالتقدم إلى قونية إلا في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٢.

ولكنه يسارع إلى توصيته ألا يتجاوزها، حتى إنه يضيف:

- بعد أن تشتت بقايا الجيش العثماني القديم عُد إلى بيلان.

ولم يفهم إبراهيم، ذلك لحدة طبعه وقناعته بأن العالم السياسي لا يخضع إلّا أمام الأمر الواقع، فكان رده إلى والده:

– علينا العودة إلى الخلف مجددًا، ما إن نصل إلى قونية بحسب أوامركم، إلا أننا سمعنا أن الصدر الأعظم محمد رشيد باشا يزحف نحونا على رأس جيش ضخم، وإذا ما تراجعنا، فسيُفسِر هذا الأمر على أنه خوف منا وعجز عن المواجهة المباشرة، وهذا ليس كل شيء، فلن يفوت الصدر الأعظم أن يستغل هذه الفرصة ليزحف إلى قونية، وقد يتجاوزها ويلحق بنا ويثير الأهالي ضدنا!

ويتراجع الباشا عن أوامره مقتنعًا برأي ابنه ولكنه يؤكد عليه:

– كل تقدم أبعد من قونية في ظل الظروف الراهنة، لن يُنظر إليه بشكل جيد من قبل القوى العظمى، والواقع أنه عندما كتب هذه الكلمات، ولم يكن يعرف شيئًا عن موقف القوى العظمى.

ويتقدم إبراهيم باشا بقواته، وتقع المعركة في ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ وينتصر انتصارا ساحقا على الجيش العثماني، إذ قتل منهم ثلاثة آلاف مقاتل، وأسر نحو خمسة آلاف، وكان رشيد باشا نفسه من بين الأسرى، وتمادى فاحتل كوتاهية، وأصبح قريبًا من الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، وهكذا وضع إبراهيم باشا جميعهم أمام الأمر الواقع، ولولا أوامر والده لكان قد فعل كثيرًا..

الهُدنة والذكريات

قال الباشا للاظ بك بعد أن تنهد تنهيدة طويلة:

- أخيرًا يا لاظ بك، اعترف الباب العالي رسميًّا بسيادتنا على سورية..
- وكيف ذلك يا أفندينا؟
- لقد وقّعوا معاهدة في كوتاهية مع ابننا إبراهيم باشا تتضمن ذلك يا لاظ.
- وماذا حصلوا عليه في المقابل أيها العزيز؟
- تنسحب قواتنا من الأناضول وتبقى في سورية فقط..
- تهانينا يا أفندينا على ضم سورية لحكمكم الرشيد.
- كم كنت أتمنى يا لاظ أن يتم ذلك برضاهم، وليس رُغم أنفهم، فأنت تعلم يا لاظ أن في بلاد المسلمين لابد أن يمنحك الخليفة ولاية، أي بلاد تحكمها، وإلّا اعتبرك الناس خارجًا على الخلافة، وهو ما يجعلهم يثورون عليك وقد يقاتلونك أيضًا.
- على أية حال، لقد قامت ثورات بالفعل على إبراهيم باشا في الشام يا أفندينا.
- ولكنها إلى الآن بسبب التغييرات التي أحدثها في بلادهم، ولم يعتادوا عليها، وليس بسبب خروجه على الخلافة.

- إنها تغييرات تخالف مجتمعات المسلمين يا أفندينا في كثير من الأمور، وتسمح للغرب بالتدخل في حياتهم!

- لقد سئمت من الذين يرفضون كل عادات الغرب يا لاظ!

- لقد كنت أنت نفسك يا أفندينا تندهش من بعض عاداتهم، وخاصة اهتمامهم بما تركه الفرعون من أصنام وتماثيل وغير ذلك!

فضحك الباشا وتذكر لقاءه مع المسيو شامبليون الذي فك رموز اللغة المصرية القديمة، وكان قد زاره يستغيث من تدمير الآثار، ويطلب منه فرمانًا ليسمح له بالتوجه مع بعثته العلمية إلى صعيد مصر لدراسة الآثار. والواقع أن الباشا كان يحتاج الحجر الجيري بكميات كبيرة لمصانعه ومعامله، وكانت هناك أعداد كبيرة جدًا من التماثيل الفرعونية مصنوعة من هذه الأحجار، فكان رجاله يستخدمونها، وقد اعتبرها الباشا كنزًا ثمينًا، وعلى الرغم من وجود المحاجر بالقرب من هذه المعابد الفرعونية، إلّا أن العمال كانوا يستخدمون التماثيل الجاهزة بدلًا من تضييع الوقت في استخلاصها من المحاجر، مما أثار غضب علماء الآثار في العالم، فقرروا التدخل لوقف هذه الكارثة، وقد سمح الباشا لشامبليون باستكمال أبحاثه، وقد ابتهج شامبليون كثيرًا بحفاوة استقبال الباشا له في الإسكندرية، فأرسل رسالة إلى أخيه في فرنسا قال فيها:

"حظيت باستقبال من قِبَل الباشا هذا الصباح، ويقيم سموه في عدة بيوت جميلة مبنية بالخشب، لكن بعناية فائقة مثل قصور القسطنطينية، وتقوم هذه الأبنية البهية المنظر في الجزيرة القديمة للمنارة، وقادنا السيد دروفتي على متن عربته التي يجرها حصانان نشيطان، وكانت تسير بسهولة رائعة في طرقات الإسكندرية الملتوية والضيقة بفضل مهارة الحوذي الكبيرة، وكان يتبعنا شبابنا في ثيابهم الرسمية على متن دواب مندفعة. نزلنا درجات قاعة الديوان، فألفينا أنفسنا في قاعة واسعة ممتلئة بالموظفين، فأُدخلنا مباشرةً إلى قاعة ثانية يسطع فيها ضوء النهار، حيث كان يجلس محمد علي في زاوية بين نافذتين في بذلة شديدة البساطة. ويمسك في يده غليونًا مثقلًا بالماس، وكانت قامته متوسطة وكل هيئته توحي بالبشاشة، وهو ما يفاجئ في رجل مشغول بمثل تلك الأمور الكبيرة، والمثقل بكثيرٍ من الهموم، كان باسم الوجه وعيناه تتقدان نشاطًا، وهو ما كان يتعارض مع لحية بيضاء مسترسلة حتى صدره، وبعد أن سأل سموه عن أخبارنا، رحب بنا وسألني عن مشاريع رحلتنا، فقلت إني أرغب في الذهاب حتى الشلال الثاني، وإني أطلب من سموه فرمانات بذلك، فمُنِحت لي مباشرةً بالإضافة إلى حارسين من رجال الباشا لمرافقتنا، ولحمل كل الناس على احترامنا حيثما توجهنا، وأكرمنا بقدح قهوة بدون سكر، لنستأذن بعد ذلك من سموه الذي رافقنا بتحيات ليس هناك ألطف منها.".

واستمر حديث الذكريات بين الباشا ولاظ حول تلك الآثار التي أهدى منها كثيرًا لدول أوروبا، من بينها مسلات، وكيف كانت تلك الدول تحاول حل مشكلات نقل هذه المسلات من مصر إلى أوروبا،

وقد استغل دروفتي بالطبع علاقته بالباشا، وعدم اكتراث الباشا بالآثار فحصل منها على نصيب الأسد،

وكان الباشا يستقبل الرسائل والتقارير أحيانًا كثيرة في وجود لاظ بك الذي لم يكن يفارقه إلا قليلًا، وكان من بين الرسائل والتقارير التي تصل للباشا نتائج المبعوثين في الخارج، والتي كان يتابعها بنفسه ويحرص على الرد عليها.

قدوة الأماثل الكرام

وكان من بين الرسائل التي أرسلها الباشا إلى المبعوثين، رسالة أملاها على سكرتيره ديوان أفندي في حضور لاظ بك حيث قال فيها:

"قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهي إليكم أنه قد وصلت إلينا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة، لم يُفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة."

وكان لاظ بك يتابع متعجبًا من صبر الباشا، وتفرغه التام لمناقشة حملة التقارير في جميع التفاصيل والدرجات، خاصةً إذا كانت النتائج غير واضحة، مما يؤكد اهتمام الباشا البالغ بهذه البعثات التي كان يعتمد عليها في تكوين دولته الكبرى، ومن البعثات التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا بعثة مشهورة باسم بعثة الأنجال، لأنها كانت تضم عددًا من أبناءه وأحفاده، ومنهم الأمير اسماعيل ابن ابراهيم باشا، والذي عاد متأثرًا بكل ما هو فرنسي. ويُذَكِّر لاظ بك الباشا بأول بعثة تم إرسالها إلى فرنسا، فيقول:

– هل تذكر يا أفندينا عندما طلبت من شيخ الجامع الأزهر أن ينتخب من علماء الأزهر إمامًا للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة، فاختار الشيخ رفاعة الطهطاوي لتلك الوظيفة.

– أجل يا لاظ أتذكر ذلك جيدًا، وقد استطاع الشيخ رفاعة يا لاظ أن يغترف من مناهل العلم في فرنسا، كما تعلم اللغة الفرنسية ودرس الآداب الفرنسية.

– لقد تأثر هذا الشيخ يا أفندينا بمفكري فرنسا، وبُهِر انبهارًا شديدًا بالحضارة الغربية، وتعجب كيف وصل هؤلاء إلى هذه المستويات العلمية الراقية.

– أجل يا لاظ بك، بل إنه قد قام بترجمة عدة كتب إلى اللغة العربية.

وكان الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي أرسله الباشا لإمامة البعثة في الصلاة، قد تجاوز مهمته كثيرًا وتعلم الفرنسية، وقرأ مؤلفات مفكري عصر النهضة الأوروبية، مثل فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وراسين. وعندما عاد كان يناقش مشايخ الأزهر من زملاءه السابقين في هذه الأفكار، فعندما سأله يومًا الشيخ العطار عن أهم ما يميز مفكري أوروبا رد عليه قائلًا:

– إنهم متحررون من تعاليم الأديان السماوية، واعتمدوا على العقل فقط في صياغة منهج الحياة في أوروبا، فاعتبروا أن الإنسان هو سيد هذا الكون، وله أن يخطط حياته بتحكيم عقله فقط.

– وما السبب في ذلك يا رفاعة بك؟

- لقد كان سبب ذلك هو رد فعلهم العنيف على سيطرة رجال الدين في العصور الوسطى، والتي كانت تُحرِّم العلم والبحث العلمي والتفكير عمومًا، وكانت لفترة كبيرة سببًا في تخلف أوروبا عن العالم كله، في الوقت الذي كانت فيه الأمة الإسلامية على أعلى مستوى من التقدم العلمي في جميع المجالات، لأن الدين الإسلامي لا يعوق العلم والبحث العلمي.

- أجل بالتأكيد يا رفاعة بك، ذلك أن الإسلام قد تميز بأنه دين لا يقوم بغير دنيا، وشريعة لا تكتمل إلا في مجتمع ووطن ونظام وعمران، فكثير من فرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحن اكتفينا بالمساجد والمحاريب، فالعلم بالإسلام يقتضي ويستوجب تحصيل العلم المدني الشرعي، وفريضة على الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات العلم، التي بدونها لا تكتمل إقامة الدين، وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين، فإن إقامة كامل الإسلام لا تتأتي إلا في مجتمع مستكمل لشرائط العمران، المادية منها والروحية والأدبية، بل إن إقامة الشعائر والمناسك والعبادات على النحو الأمثل، وفي حضور قلبي يجعلها خالصة لله، لا يتأتى إلا إذا انتظمت شئون الدنيا، وتحققت شروط الأمن المادي والمعنوي للعابدين العاكفين الراكعين الساجدين، وذلك حتى يتمكنوا من إفراد المعبود بالعبادة، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدنيوية التي تحول دون الحضور في العبادات.

ومما يؤكد تأثر الشيخ رفاعة بالأفكار الأوروبية، هو فشل الحملة الفرنسية في نقل الأفكار الأوروبية إلى الشعب المصري، بينما نجح في ذلك الشيخ رفاعة الذي أصبح رفاعة بك، فلو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية، فلن نجد أثرًا واحدًا يدل على تغلغل الأفكار الأوروبية بين المصريين، ولن نسمع عن فولتير أو روسو أو موليير أو نظم الانتخابات والعقد الاجتماعي وإرادة الأمة، إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوي من رحلته إلى باريس في عام ١٨٣١م، أي بعد ثلاثين عامًا بالتمام والكمال من رحيل الحملة. ويمكن اعتبار أن عصر محمد علي كان بمثابة بداية لحملة فرنسية جديدة على مصر، ولكنها حملة ثقافية، فهي استكمال للحملة العسكرية التي شنها نابليون على مصر، فقد كان هناك خبراء في عدة مجالات من فرنسا في مصر، كما كان هناك مبعوثون من مصر إلى فرنسا، ولم تكن العلوم الطبيعية فقط هي التي يتم نقلها، ولكن كانت عملية تغيير الأفكار بشكل واضح، مما يؤثر على بعض الثوابت الراسخة. وقد ألف الشيخ رفاعة كتابًا شهيرًا يصف فيه عاصمة فرنسا بعنوان "تخليص الإبريز في وصف باريس" والذي ميز فيه بين "الوضعية الغربية" اللادينية، وبين "علوم التمدن المدني" الموضوعية والمحايدة، فقال عن باريس وبلاد الفرنجة:

أيوجـــد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أمـا هـــذا وحقكم عجيب

ويستكمل الشيخ رفاعة الطهطاوي أو رفاعة بك وصفه لباريس فيقول:

"فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية، إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، إذ لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المُحَسِّنة والمُقَبِّحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق شيئا مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية، والذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافي في المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة.".

ولقد كان الخبراء الفرنسيون والمبعوثون المصريون القادمون من فرنسا في عهد محمد علي باشا، بمثابة حملة فرنسية جديدة على مصر، ولكنها بدون سلاح، فهي حملة ثقافية فكرية بحتة، تقوم بتغيير الأفكار وهز الثوابت في الوقت نفسه الذي تنشر فيه العلوم الطبيعية والتقدم، فلم يكن تقدم بلا ثمن، ولم يكن الباشا بالطبع يريد من أوروبا الأفكار الفلسفية

وأنظمة الحكم، بل كان يريد العلم الذي يدير به عجلة الإنتاج، ليؤسس مجتمعًا حديثًا، ولكنك لا تستطيع أن تنقل علمًا دون آخر، أو أن تتحكم في تدفق أفكار الغرب كلها، أو أن تمنع مبعوثيك من الانبهار، ولقد تقبل الشعب من محمد علي ما لم يتقبله من نابليون لأنه حاكم مسلم. وبالطبع لم يتطرق حديث الباشا مع لاظ بك عن رفاعة الطهطاوي إلى هذه الأمور، ولكن كان حديثهما يتناول ذكريات الباشا عن البعثات بشكل عام، وما أحدثته في مصر من ازدهار في كافة المجالات.

البحث عن المياه الدافئة

ولم يستمر حوار الذكريات الهادئ الماتع لوقت طويل، فقد وصلت أخبار أزعجت الباشا عن تقارب بين الباب العالي وبين روسيا، إذ وقَّع الطرفان معاهدة دفاع مشترك، فتغير حال الباشا وذهبت عنه البشاشة التي عهدها منه لاظ بك، فسأل سؤالًا بدا ساذجًا كالعادة بالنسبة للباشا:

- ما الذي يدفع روسيا لمثل هذا الاتفاق مع الباب العالي يا أفندينا؟

- إنها تبحث عن المياه الدافئة يا لاظ..

ولم يفهم لاظ ما يعنيه الباشا، وكذلك لم يجرؤ على إعادة السؤال مرة أخرى، أو طلب تفسير هذه الإجابة الغامضة، وشعر الباشا بالطبع بحيرة لاظ وبما يفكر فيه فاستطرد قائلًا:

- إن الدولة العثمانية يا لاظ، هي المتنفس الوحيد للروس كي يصلوا من خلالها من البحر الأسود إلى البحر الأبيض، وقد منحتهم هذا المتنفس.

- وما المقابل يا أفندينا؟

- الباب العالي يستعد بالتأكيد يا لاظ لاستعادة سورية، ويخشى من مواجهتنا، فتنازل للروس عدوه التقليدي اللدود طمعًا في دعمها عند حدوث المواجهة.

- وماذا سيكون موقف باقي الدول الكبرى يا أفندينا؟

- لا أدري يا لاظ، لقد أصابتني الحيرة من هذه الدول، وأشعر أنها تعبث بنا جميعًا، وعلى أية حال، لابد أن نستعد للقتال ونمد ابننا إبراهيم باشا بما يحتاجه من قوات ومعدات.

ويرسل إبراهيم باشا لوالده رسالة يوضح فيها معلومات مؤكدة عن وجود حشد كبير لجيش عثماني بقيادة القائد العثماني الشهير محمد حافظ باشا، وهو من أكفأ قادة الباب العالي، وأنه يستعد للزحف على سورية لطرد القوات المصرية، فيعمل الباشا على دعم موقف ابنه بأقصى سرعة بكل ما يستطيع من إمدادات، ثم يصل مندوب من طرف السلطان العثماني محمود الثاني، ليلتقي بمحمد علي باشا لبدء مرحلة جديدة من المفاوضات، وكان المندوب يُدعى صارم أفندي. وكان صارم أفندي يحاول أن يصل إلى شروط صلح يقبلها الطرفين، ليمنع المواجهة المرتقبة، ولكن جميع المفاوضات تفشل، ويتخذ الباشا قرارًا في منتهى الخطورة، وهو إعلان استقلاله عن الدولة العثمانية، ليقطع آخر سبب يربطه بالدولة. ويجمع قناصل الدول ويخبرهم بهذا الإعلان في مايو سنة ١٨٣٨، وهنا تدرك الدول أن الباشا قد قرر أن يصبح بديلًا قويًّا للدولة العثمانية التي أصبحت تُسمى بالرجل المريض، وهو ما لن يسمحوا به أبدًا، فقرروا الوقوف إلى جانب الرجل المريض ضد محمد علي الذي دعموه من قبل بما يكفي لإنهاك الرجل

المريض، ومضاعفة مرضه للقضاء عليه بسهولة، ثم تقسيم تركته عليهم بعد ذلك. وقال أحد القناصل في أثناء لقائهم بالباشا:

- لا يمكن أن نوافق على استقلال سموكم عن الدولة العثمانية، فهو إجراء سيسبب كثيرًا من المشكلات التي لا تُحمد عواقبها في المنطقة!

- ولماذا وافقتم على استقلال اليونان عن الدولة، ولا تريدون الموافقة على استقلالنا؟!

- إن موقف اليونان يختلف تمامًا عن موقف سموكم..

وهنا أدرك الباشا الحقيقة المرة التي كان يحاول تجاهلها، وهي أن الغرب ينظرون إلى باقي الشعوب نظرة تختلف عن نظرتهم للشعوب الأوروبية. ولكنه في قرارة نفسه مُصِر على الاستقلال، ويعتقد أنه أحق بالاستقلال من اليونان، فعلى الأقل قد انتصرت جيوشه على جيوش الباب العالي، ومستعد لأية مواجهة أخرى للحصول على الاستقلال بالقوة.

ودقت طبول الحرب من جديد

واحتشدت القوات العثمانية في قرية نصيبين على الحدود العثمانية مع سورية، بقيادة حافظ باشا، كما وصلت الإمدادات إلى إبراهيم باشا. ويرسل الباشا إلى ابنه في يونيو ١٨٣٩ رسالة يقول فيها:

- لا تكتفي بإرجاع جيش الأعداء إلى حدود اتفاقية كوتاهية التي لم يحترموها، بل عليك سحقهم.

وقد استمد إبراهيم باشا من هذه الرسالة شحنة معنوية هائلة، جعلته عازمًا على سحق الجيش العثماني وتدميره عن آخره. ونشبت المعركة، واحتدم القتال، وظهرت براعة إبراهيم باشا في القيادة، وكان النصر حليفه، وخسر كل جانب من الطرفين أربعة آلاف قتيل، بينما تم أسر حوالي اثني عشر ألفًا من القوات العثمانية. وقد قضت هذه المعركة على قوة الدولة العثمانية، وأضعفت قوة محمد علي، وهكذا استطاع الغرب تحقيق الأهداف المطلوبة من هذه المواجهة. وتوفي السلطان محمود قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه، إذ كان على فراش الموت، وخلف بعده ابنه السلطان عبد المجيد الذي لم يتجاوز سنه السابعة عشر، فلم يدر كيف يتجه بين العواصف التي هبت على عرشه، وما زاد الطين بلة كما يُقال هو قيام القبودان أحمد باشا فوزي قائد الأسطول العثماني بخيانة الباب العالي، والإبحار بالأسطول إلى

الإسكندرية، وتسليمه إلى محمد علي باشا الذي ابتهج كثيرًا بسبب ذلك، وكان البحارة والجنود على متن الأسطول يعتقدون أن هذا التحرك ليس مقصودًا منه سوى أعمال حربية، فلما وصلوا الإسكندرية واكتشفوا حقيقة ما حدث، هربوا من فوزي باشا وعادوا إلى الأستانة. وبهزيمة الجيش العثماني وانضمام الأسطول العثماني إلى الأسطول المصري، أصبح محمد علي باشا يمتلك قوة ضاربة برًّا وبحرًا. ويقول الباشا للاظ بك مبتسمًا وهو يدخن، حيث يجلسان معًا كعادتهما يشربان القهوة في قصر رأس التين بالإسكندرية:

- نحن الآن يا لاظ بك في أوج قوتنا في البر والبحر.

ولم يستطع لاظ إخفاء قلقه فقال:

- أجل يا أفندينا، ولكن الدول...

وقاطعه الباشا قبل أن يكمل كلامه قائلًا:

- الدول، الدول ماذا يا لاظ؟ متى ستكف عن هذا القلق وتعيش بهجة الحدث ولو لمرة واحدة؟

ولكن مع مرور الوقت، اكتشف الباشا أن لاظ بك كان على حق، فقد تم عقد مؤتمر في لندن بحضور خمس دول كبرى لفرض وصايتهم على الباب العالي، ولتقرير ما يجب عليهم عمله حيال ما حدث، ومناقشة ما

سُمِّي بالمسألة المصرية أو الشرقية، وهذه الدول هي إنجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا،

وقرروا أن يبقى الباشا تحت السيادة العثمانية ولو بالقوة، وأن يتخلى عن سورية وجزيرة العرب وأدنة وكريت، وينكمش داخل مصر، وتآمرت الدول عليه وحاربته، وقصَّت أجنحته وقضت عليه بتقليص عدد قواته إلى ١٨٠٠٠ جندي، ومنعته من بناء السفن، وقررت إعادة الأسطول العثماني إلى الباب العالي، وتدمير وأسر سفنه في عرض البحر سواء كانت حربية أو تجارية، كما قرروا أن يدفع جزية سنوية للباب العالي، وأن تكون قواته جزءًا لا يتجزأ من قوات الدولة العثمانية، فلا يعمل بشكل مستقل عنها.

وكل ما منحوه للباشا من امتيازات هو أن يكون حكم مصر وراثيًّا في أسرته.

ولم يكن فرض كل هذه الشروط على الباشا سهلًا، فقد رفضها بالكامل في البداية وقاومها بالقوة، ولكن التحالف كان أقوى بكثير، فقد احتلوا جميع موانئ سورية، وأثاروا شعوب الشام ضده، وقاتلوا إبراهيم باشا ومنعوا عنه إمدادات أبيه، بل وهددوا الباشا في عقر داره؛ وأرسلوا إلى الإسكندرية ذاتها أسطولًا ضخمًا لاستعراض القوة فيما يُسمى مظاهرة بحرية، فشعر الباشا أن المؤامرة أكبر من إمكاناته، فرضخ في النهاية لشروط معاهدة لندن التي تم توقيعها في ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والباب العالي.

ولكن كان موقف فرنسا هو أكثر ما أدهش الباشا، فكيف لم تمنع باقي الدول من المؤامرة عليه، ويبدو أن الباشا لم يكن يعرف أن فرنسا لم تختلف يومًا عن باقي الدول، وأنها كانت تساعده لأسباب وأغراض خاصة، فكان وقع الصدمة هائلة على الباشا.

عندما استشاط غضبًا

والذي حدث أن الباب العالي كان قد أرسل للباشا مندوبًا لإبلاغه بشروط معاهدة لندن، وكان هذا المندوب يُدعى رفعت بك، فقابله بسراي رأس التين، وأبلغه الشروط، فغضب الباشا وأغلظ له في الجواب، وأقسم ألا يتنازل عن شبر واحد من أملاكه، فغادر رفعت بك مصر وتوجه إلى الأستانة، فحضر قناصل الدول إلى سراي الباشا في رأس التين، وكرروا عليه شروط المعاهدة فاستشاط غضبًا وقال لهم:

- أتعشم أن ترحلوا كما رحل رفعت بك..

فقال أحدهم:

- ولكن يا صاحب السمو، ليس لدينا تعليمات بمغادرة مصر.

- ولكني لم يعد لي ثقة فيكم، والعوائد المرجعية تقضي في حالة الحرب أن يرحل وكلاء أعدائنا عن البلاد، فبقاؤكم لا يتفق مع هذه الحالة.

فغادر القناصل القصر بعد أن أمهلوا الباشا عشرة أيام أخرى للتفكير في الرد.

وقد حاول الباشا التفاوض مع الباب العالي بدون تدخل الدول الأخرى ليصلوا معًا إلى اتفاق مرضٍ، ولكن الباب العالي نفسه لم يكن يملك حق التفاوض منفردًا، وليس له القدرة على ذلك، وعندما عاد

القناصل لمقابلة الباشا بعد عشرة أيام، رفض مقابلتهم وقابلهم بوغوص بك وزير خارجيته والذي لم يكن مفوضًا بالرد، فاعتبروا ذلك رفضًا لمطالبهم؛ وهكذا بدأت الحرب بين الباشا وكل هذه الدول مجتمعة والتي بالتأكيد لم تكن في صالح الباشا. فاضطر في النهاية إلى الموافقة على جميع شروط معاهدة لندن، وبذلك تم حرمانه من ثمار جميع انتصاراته، وكأنه لم ينجح سوى في بناء الأساس فقط لبناء شاهق كان يحلم به، وهذا الأساس كان تأسيس مصر الحديثة. بينما فشل الباشا في تحقيق مشروعه الكبير، وقد أثرت بلا شك كل هذه الأحداث على الباشا، وأصبح لا يثق فيمن حوله، سوى شخص واحد فقط هو لاظ بك الذي لم يبتعد عنه أبدًا، وظل الصديق الوفي والناصح الأمين وكاتم السر والمتنفس الوحيد لغضب الباشا والمتلقي لهمومه وأحزانه.

فكان يزوره يوميا بسراي رأس التين، يتجاذبان أطراف الحديث، وبمرور الوقت اعتلت صحة الباشا وأُصيب بضعف في قواه العقلية، ولم يعد في استطاعته الاضطلاع بأعباء الحكم، ولم ينجح معه أي دواء، فعقد إبراهيم باشا مجلسًا خاصًّا برئاسته، واستقر رأي المجلس على أن يتولى إدارة شئون البلاد بدل أبيه، فتولى الحكم في أبريل سنة ١٨٤٧ وأبلغ الأمر إلى الباب العالي، فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد، وهكذا تولى إبراهيم باشا حكم مصر في حياة أبيه.

إبراهيم باشا على عرش مصر

كان إبراهيم باشا طيلة حياته مولعًا بالحروب، ولا يكترث كثيرًا بحياته التي جعلها هدفًا للمخاطر بشجاعة بلغت حد المجازفة، ولا يطيب نفسًا إلا في جو العمل والنشاط والحركة، وقد استاء كثيرًا من مواقف الغرب خاصةً منذ أن أجبرته السياسة على أن يوقف زحفه بعد معركة قونية، وقد التقى في ذلك الوقت بالبارون بوالكونت فقال له:

- إنه ليؤلمني أن الدول منعتني من متابعة الزحف..

- إني أظن بالعكس، إنه قد آن الوقت الذي يحق فيه للدول أن تفكر في وقف سموكم عن الزحف، فإنه لم يكن أمامكم سوى بضع خطوات لتصل الجنود المصرية إلى أسكدار، وهنالك تشب الثورة في الأستانة!

- ولكني كنت شديد الرغبة في دخول الأستانة على رأس جيشي!

- وماذا تقصدون سموكم من الذهاب إلى الأستانة؟ وماذا كنتم صانعين بها؟

- ما كنت أدخلها للهدم بل للإصلاح، ولكي أُقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء، بدلا من الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الإمبراطورية.

- إن سموكم يؤكد بحديثه المخاوف التي ألمعت إليها في كلامي، فإن ما كنتم تنوون إحداثه هو ما كنا نعمل على منعه، لا، لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو سموكم أو نحو أبيكم، ولكن لأن الانقلاب الذي كنتم عازمين على إحداثه في الأستانة يُفضي إلى مشكلات قد تُشعل نار الحرب في أوروبا بأسرها.

- إنك واهم فيما تظن، فإن هذا الانقلاب كان يحدث دون أية مقاومة، فإن السكان على جانبي البوسفور والدردنيل يطلبونني لإحداث الانقلاب الذي يتم في هدوء وسرعة دون أن تجدوا الوقت للشعور بوقوعه، تقولون إنكم تبغون الدفاع عن كيان الدولة العثمانية وجعلها قوية، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث سلطنة قوية، تقوم على أنقاض هذه السلطنة المفككة التي تحاولون عبثًا تأييدها، والتي ستنحل يومًا ما بين أيديكم وتسبب لكم وقتئذ مشكلات لا عداد لها.

وهنا سكت إبراهيم باشا قليلًا عن الكلام، كأنما استوقفته فكرة طارئة ثم قال: إنني أبحث كثيرًا وأتساءل، لماذا تحقد الدول الأوروبية كل هذا الحقد على الأمم الإسلامية؟

- إني لم أفهم كلام سموكم!

- نعم، فإنك تقول الآن أن وصول جيشي إلى أسكدار يُحدث ثورة في الأستانة، وإني أوافقكم وأرى رأيكم، ولكن أليس هذا دليلًا على أن الأمة

الإسلامية لا تريد حكم السلطان محمود؟ فبأي حق ترغمون هذه الأمة على ما لا تريده، وهل يحق لكم معشر الفرنسيين أن تمنعوها من اختيار حكامها؟ عجبًا! لقد كنتم حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة، وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم، تنادون بأن لكل أمة الحق في اختيار ولي أمرها ونظام الحكم الذي تبتغيه، بل إنكم ساعدتم اليونانيين في ثورتهم، فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق؟!

وكان إبراهيم باشا يلقي حديثه هذا في حماسة وذكاء، ويمزج الأدلة القوية بشيء من الفكاهة والدعابة، واستمر الحوار دون أن يقتنع أحدهما برأي الآخر.

والآن أصبح إبراهيم على عرش مصر، ولكن بعد أن فقدت كل ثمار جهوده وحروبه الناجحة، ولكنه لم يستمر في الحكم طويلًا إذ وافته المنية في العاشر من نوفمبر سنة ١٨٤٨ ووالده على قيد الحياة، فتولى الحكم عباس باشا الأول ابن طوسون باشا ابن محمد علي، إذ كان أكبر سنًا من عمه سعيد باشا بن محمد علي باشا، ولنترك عباس باشا يحكم مصر، ونعود إلى قصر رأس التين حيث يعيش محمد علي باشا الفترة الأخيرة من حياته شاردًا لا يدري ما يدور حوله، ولا يلتقي إلا بجليسه لاظ بك، والذي ترقى إلى رتبة باشا منذ زمن طويل، ولكنه لم يُلفت نظر محمد علي باشا إلى تلك الحقيقة؛ ففي حياته باشا واحد فقط.

حديث الذكريات:

كان لاظ يتحمل سلوكيات الباشا وغضبه، ويرفق به ويحاول أن يخفف عنه في مرضه الأخير، ووجد أن أفضل حديث يمكن أن يتناوله مع الباشا هو أن يُذكِّره بإنجازاته العظيمة التي كثيرًا ما احتفلا معًا بنجاحها. وكان بالفعل هذا الحديث يرفع من روح الباشا المعنوية، ويخفف من غضبه ويعدل من مزاجه، وكان لاظ يتحدث دون أن ينتظر ردًا من الباشا، وكأنه يحكي له قصصا ممتعة، تُشعره بالارتياح، وهي قصص في مجموعها تروي تأسيس مصر الحديثة على يديه. فمما قاله له:

"أما ما كان من نقلكم مصر يا أفندينا العزيز إلى بيئة غير البيئة التي وجدتها فيها، وذلك بأن أقلعت عن طريقة الحكم التي سبقت عهدكم، فاحتط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين، دعوته الديوان الخديوي،

وأنشأت من أبناء البلد جيشًا زاهرًا مدربًا على الطريقة الغربية، وعلى الرغم من الصعاب، كانت الواحدة منها كافية لتفل الحديد وتدك الجبال، وأنشأت بجانب هذا الجيش عمارة بحرية فخمة، جولت الراية المصرية مهابة معظمة في مياه البحر المتوسط ومياه البحر الأحمر، وأنشأتها من العدم، وعلى الرغم من عدم وجود مادة واحدة لديكم من المواد اللازمة لبنائها، كما جددتم بجدة المعارف بتغييركم برامج التعليم وطرقه، ففتحتم المدارس

تترى، ابتدائية وثانوية وعالية، فالمدارس الابتدائية كانت سبعًا وأربعين، والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت أربعًا وعشرين، منها مدرسة القصر العيني، ومدرسة اللغات، ومدرسة المعادن، ومدرسة الطب البيطري، ومدرسة الطب والتوليد، ومدرسة الموسيقي وغيرها. ولم تكتفوا بذلك، بل أرسلتم البعثات تلو البعثات إلى المعاهد الأوروبية، وإضافة إلى المدارس، إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها، لتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الأجنبية.

وغطيتم وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة، فمن سد أبي قير، إلى سد الترعة الفرعونية، إلى سد فتحة بحيرة المنزلة، إلى تقوية جسر قشيش، وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق، إلى بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي، إلى تعزيز قنطرة اللاهون، إلى حفر الترع العديدة، وأهمها المحمودية والخطاطبة ومسد الخضراء، والنعناعية والسرساوية والباجورية والبوهية والمنصورية والشرقاوية، إلى إقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري، إلى بناء الترسانة وحوض تصليح السفن، وتشييد قناطر بحر شبين، والقناطر الخيرية الكبرى، وهي معجزة أعمالكم، إلى ابتناء الحصون والقلاع على السواحل المصرية، وبناء السرايات العديدة، وأهمها سراي رأس التين، وسراي شبرا، وسراي قصر النيل، إلى تحويل الأزبكية إلى منتزه عمومي، إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييرًا محسوسًا، وقد قمتم بهدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل

الغرب والشرق، ومكن العالَمين من الاختلاط معًا، لا بالإتجار الواسع فحسب، بل بالاحتكاك اليومي، فحببتم إلى الغربيين المجيء إلى القطر، واستغلال رءوس أموالهم في أرضه، وإنشاء مدارس لأولاهم على سطحه، وفتحتم أمام الناس أبواب السفر إلى الغرب، والتعرف إلى حاله والاقتباس منه. وظل محمد بك لاظ على عهده مع الباشا إلى أن توفي الباشا في ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ الموافق ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ بسراي رأس التين، ونُقِلت جثته إلى القاهرة، ودُفِن بمسجده بالقلعة.

تمت

المراجع

١- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر – الجزء الثاني – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

٢- تاريخ مصر الحديث – من الحملة الفرنسية إلى ثورة ١٩٥٢ (١٧٩٨-١٩٥٢) –صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – دكتور محمد مورو

٣- تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة – تإليف محمد رفعت – وزارة المعارف العمومية – الجزء الأول – للمدارس العالية – من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٩ – طبعة ١٩٣٤

٤- الخطط التوفيقية – على باشا مبارك

٥- الفرعون الأخير محمد علي (١٧٧٠-١٨٤٩) – جيلبرت سينويه – تقديم : ديروش نوبلكور – ترجمة : عبد السلام المودني – منشورات الجمل

٦- عجائب الآثار في التراجم والأخبار – المعروف بتاريخ الجبرتي - عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي ولد في القاهرة عام ١٧٥٦ وتوفي في القاهرة عام ١٨٢٥

٧- عصر محمد علي – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

٨- محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الأيوبي

٩- محمد علي وأولاده – بناة مصر الحديثة – جمال بدوي – مكتبة الأسرة ١٩٩٩ –هيئة الكتاب

١٠- مصر من نافذة التاريخ – جمال بدوي – دار الشروق – الطبعة الأولي ١٩٩٠

ملحوظة:

جميع الأحداث الرئيسة في الرواية أحداث حقيقية، أما تفاصيل الأحداث وبعض الشخصيات والحوار فمن خيال الكاتب.

المحتويات

إيش تاخد من تفليسي يا برديسي؟ ٥
المنقذ بلا طموح..... ١١
ها هو الباشا عندكم..... ١٤
يا رب يا متجلي اهلك العثمانلي..... ١٩
السيد عمر مكرم يطرق الباب..... ٢١
الثورة على الوالي ٢٣
المتابعون في صمت ٢٨
القنصل الفرنسي ومخاوفه من (حصان طروادة الإنجليزي) ٣٠
الثوار في انتطار الفرج..... ٣٣
راحت السكرة وجاءت الفكرة ٣٥
يا أحمد بك، وقعت في الشرك:..... ٣٩
لعن الله من يفعلها مرة أخرى..... ٤٦
المماليك، صداع في رأس الباشا..... ٥١
متمرد خطير..... ٥٤
السيد عمر مكرم يُطمئن الباشا ٥٩
أقوى رجل في مصر ٦٣
تحويل شراع القبطان ٦٦
الآن ملكت مصر ٦٩
حتى يأتي أفندينا الباشا ٧٥
على حساب الأهالي..... ٨١

وافتتنوا بالدنيا ٨٦
المذبحة..... ٩٢
الخبر السار ٩٧
الباشا حارس الأماكن المقدسة ١٠٠
الباشا يبكي ١٠٦
قصر من القش ١١٠
الحاجة للأزهر ١١٥
لم يرحم شيخوخته ١١٧
الفلاح والباشا ١٢١
اللعب مع الكبار ١٢٣
هذا ليس من الإنصاف ١٢٨
كيان مستقل ١٣٢
نشوة الانتصار ١٣٨
الهُدنة والذكريات ١٤١
قدوة الأماثل الكرام ١٤٥
البحث عن المياه الدافئة ١٥١
ودقت طبول الحرب من جديد..... ١٥٤
عندما استشاط غضبًا..... ١٥٨
إبراهيم باشا على عرش مصر ١٦٠
حديث الذكريات: ١٦٣
المراجع ١٦٦

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.